د. عصمت سيف الدولة

عن الناصريين وإليهم

منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net





عـن الناصـريين .... وإليـهم

• دكتور عصمت سيف الدولة •



مقـــدمـــة ..

حينما كانت الحركة الجماهيرية القومية منتصرة تحت قيادة عبد الناصر كتبت ماكتبت حاثا ومحرضا جماهير الأمة العربية وقيادتها على عدم التوقف عند الوحدة الجزئية . وعدم الاكتفاء بوحدة القيادة ووحدة الحركة بدون وحدة التنظيم . وساندت بالدراسات المكتوبة التى لم تنسب إلىّ قط كثيرا من القوى القومية المناضلة ضد التجزئة فى كثير من الأقطار العربية . ولم أكتب شيئا قط عن مصر تحت قيادة عبد الناصر التى كانت الأمة العربية قد كسبتها قاعدة قائدة . انصرفت فيها إلى تأصيل الوحدة وتبرير التضحيات من أجلها والتوحيد بينها وبين النصر فى كل معارك التحرر والتقدم .. وقد عوتبت أيامها على أننى لم أذكر فى كتبى لامصر . ولا الميثاق . ولاحتى عبد الناصر . وكان المعاتب صديقا قديما لى ومن أقرب الناس إلى عبد الناصر . وكان جوابى أنى أقاتل بما أكتب فى سبيل أمتى ووحدتها القومية حيث تدور المعارك مع الأعداء واحتمالات النصر الآن أو الهزيمة . ولست معنيا . ولا أنا أجيد ترتيل أناشيد النصر للمنتصرين .. ومصر عبد الناصر (١٩٦٦) منتصرة فهى فى غير حاجة إلىّ وخسرت كثيرا وكثيرين لم يفهموا ذاك الموقف . ولكنى لم أعبأ حتى بالتوقف لمعرفة ماذا ومن خسرت .. كان الأكثر استحقاقا للانتباه مساندة الحركة المنتصرة حتى يتحقق النصر الأخير .. فرأى من رأى أننى أستحق لقب « قومى » وكان ذلك بالنسبة إلىّ كسبا عظيما ..

وقبل أن يغيب عبد الناصر فجأة يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ كنت قد تلقيت دعوة من الإخوة فى ليبيا لإلقاء سلسلة محاضرات فى نطاق التحضير لإنشاء تنظيم « الاتحاد الاشتراكى العربى » فى ليبيا وقبلت الدعوة وانشغلت بالتحضير للوفاء بما هو منتظر منى . ثم مات عبد الناصر قبل الموعد المحدد للزيارة بأيام فكتبت إلى صاحب الدعوة (فى ٤ أكتوبر ١٩٧٠) رسالة طويلة قلت فيها :

« لست أنكر أن دعوتكم لى إلى زيارة ليبيا العربية . واللقاء مع شبابها كانت التقاء طيبا مع رغبتى الكامنة فى أن أزور ليبيا وألقاهم وأستمع لهم وأتحدث إليهم لعلنا نستطيع أن نهتدى جميعا إلى كيفية الوفاء بمسئوليتنا القومية . وقد كنت أنتظر أن يتحقق لى ذلك يوما لم أكن أعرفه . حتى جاءت دعوتكم فظننت أننى قد عرفته . وأعددت نفسى للقاء كان يبدو قريبا . وبكل الحماس والغبطة كنت أحاور

نفسى فى : كيف سيكون اللقاء وفيم سنتحدث ؟، وما الذى علىّ أن أفعله حتى تكون تلك الزيارة مثمرة . ولم يكن فى كل هذا الحوار الذاتى مكان لأى موضوع غير الموضوع الذى أشغل نفسى به منذ أكثر من عشر سنوات : الدعوة إلى قيام تنظيم قومى ثورى . ينتظم القوى القومية التقدمية ويفرض دولة الوحدة الاشتراكية الديمقراطية على كل أعدائها . كنت سأحضر إليكم داعية كما كنت . وماكنت داعية - لأكثر - إلا لأننى كنت أقدر أن واجبنا الأول أن نجنب مولد التنظيم القومى مخاطر الإجهاض ، فلانعجل بالإنشاء إلا بعد أن تنضج الدعوة ويعد الناس أنفسهم للحدث الكبير ... إلخ . »

هكذا كنت أقدر . وهكذا كنت أفكر وأنا أعد نفسى للقائكم ..

« وكان وراء هذا التقدير والتفكير واقعة مسلمة . هى أن ثمة فى الوطن العربى قوة قادرة على الصمود بالممكن إلى أن يتحقق مايجب أن يكون ، كفيلة بأن تمنح الشباب القومى الوقت اللازم ليعد للمستقبل أداته الثورية ، كنا نقرأ وندرس ونفكر ونكتب وندعو ونلتقى فى أناة المطمئن إلى أن له فى تلك القوة .

- غير أن كل شىء قد تغير فجأة .
- فقدنا القوة القادرة على الصمود بالممكن .
- فقدنا الضمان ضد ملاحقة الزمان حتى نصنع مايجب أن يكون .
- فقد مات عبد الناصر .

« وأصبحت صورة الواقع العربى بعده مختلفة نوعيا عنها وهو ركن منها . ومن هذا الواقع الذى تغير أن كل الشباب القومى الذين كانوا يتأنون أو يترددون أو يماطلون فى الوفاء بمسئولياتهم القومية اعتذارا بعبد الناصر ، قد فقدوا عذرهم ، ودخلوا الاختبار التاريخى الذى طالما تهيبوا دخوله . وأصبح الزمان ، ذلك العنصر الأساسى فى النضال الثورى نذيرا ضدهم . ولم يكن الإدراك الواعى لاحتمالات المستقبل الذى داهمنا قبل أوانه أقل مدعاة للجزع من الحزن الإنسانى لوفاة عبد الناصر قبل الأوان .. إلخ .. »

نعـــم ..

فمنذ اليوم الأول لوفاة عبد الناصر توقعت ما أصبح اليوم واقعا . أولا لأننى كنت أعرف معرفة صحيحة الدور القومى الذى يقوم به عبد الناصر : وثانيا لأننى كنت أعرف معرفة صحيحة أنور السادات (منذ ١٩٤٦) . فقد كان أنور السادات إقليميا فرعونيا رأسماليا مغامرا نرجسيا منذ بداية حياته العامة . ولم يكن يعبأ بالتقييم الاجتماعى للمواقع التى يختارها لتقدمه مادامت ترضيه (استطاب معاشرة حاشية الملك والالتحاق بحرسه الحديدى مع أنه لم يكن ملكيا) . فهو لم يخدع أحدا إنما انخدع به من لم يعرفوه بعيدا عن عبد الناصر فلم يعبأ بانخداعهم . أياما كان من أمر

ذاته فإنه لم يلبث حتى ارتد عن الاتجاه القومي التقدمي لثورة يوليو الناصرية .. فانتقلت المعارك بالنسبة إلىّ ، وبالنسبة إلى كل قومي حقا وصدقا ، إلى القاهرة . وأصبحت مقاومة الردة والحفاظ على الانتماء القومي واسترداد مصر إلى مركز القاعدة للحركة القومية هو القضية القومية المركزية . ولقد أخطأ الذين لم يستمعوا إلىّ من قادة منظمة التحرير الفلسطينية حين نبهتهم إلى أن قضية مصر ، وليست قضية فلسطين قد أصبحت القضية القومية المركزية بعد اتفاقية كامب ديفيد . كما أخطأ خطأ فادحا الذين أعماهم ولاؤهم الذاتي لشخص عبد الناصر حينما اتخذوا من اختياره نائبا حجة لاختياره رئيسا . على أي حال فقد استغرقتني المعارك في الساحة والزمان اللذان حددهما أنور السادات . ومازلت أكتب وأنشر وأدافع عن كل المعارضين وأدخل السجون وأخرج منها من أجل الدفاع عن أمتي العربية في معركة تجرى في مصر . حتى تلقيت عديدا من الرسائل من الشباب العربي في أقطار متعددة يتهمونني بأنني قد أصبحت إقليميا .. إلى أن سمحت الظروف بعد أنور السادات بأن أدخل معركة قومية شاملة كل الأقطار بآخر كتبي « عن العروبة والإسلام » .

إنني أكتب هذه المقدمة يوم ٢٠ أغسطس ١٩٨٧ . بانتهاء هذا اليوم تكون قد انقضت أربع وستون سنة من عمري . قد أصبحت إذن شيخا . امتد البياض من شعر الرأس إلى شعر الحاجبين على جبهة سمراء متغضنة وبهت سواد العين واصفر بياضها . ولم أعد أضم فمي إلا على بضعة قليلة من الأسنان التي صاحبتني العمر الطويل تساندها أسنان مصنوعة . ولم تعد أذني اليمنى تطيق الحديث الهامس فهي لاتستقبله . ومنذ أشهر انحنيت ألتقط الصحف من أمام باب مسكني فانقضم ظهري وشدوني إلى فراش خشبي ثلاثة أسابيع فلما استطعت النهوض لم أعد إلى استقامة عودي من جديد . وأصبحت أمشي بطريقة مرحة . فرجل تمشي كما اعتادت أما الأخرى فتلاحقها قفزا كما لو كانت طفلا يجرى ليدرك أمه . ولم تعادل مرارة الشعور بالغيظ الذي يحرق الدم مما يدور في الوطن العربي مايكاد يحرق أعصابي من سكر الدم . وأصبح جزءا مفروضا في كل وجبة حبوب مزوقة الألوان أكثر عددا وألوانا من أعلام الدول العربية المفروضة على أمتنا . وضمرت عضلات الملاكم على عهد الشباب فكأن عظامي مشدودة بحبال واهنة من ليف النخيل .. وضعفت الشهية للطعام حتى كأنني أقوم بدون وعي « بترشيد الإنفاق » في ظل الأزمة الاقتصادية الطاحنة .. إلخ ..

النتيجة : إحساس عميق بأنني أقترب من يوم لابد منه مع إيماني بأن الأعمار بيد الله . ولست أخاف لقاءه . سبحانه وتعالى . فلم أكن في يوم إقليميا . ولاكنت رأسماليا . ولاكنت حاكما في دولة عربية . ولاموظفا في إحدى حكوماتها . ولا وافقت جهرا أو سرا على اتفاقية كامب ديفيد . وأنا أتطلع إلى جنته اتكالا على مغفرته الصغائر من الذنوب أو اكتفاء بحياة العذاب يقضيها القوميين في وطنهم وقد قطعه

الإقليميون أجزاء وأقاموا فى كل جزء منه دولة فاشلة .

وبعـــد ؟

وبعد فإن رأسي ملىء حتى التخمة بما اختزنته فيه لأخرجه مكتوبا فى أوانه . ولم يعد العمر قابلا للمراهنة على امتداده . لابد إذن أن أكتب وأكتب ولو فى غير معركة . ولن أفتقد على أى حال معركة أشترك فيها بما أكتب . فالعالم كله والوطن العربى ملىء بالمعارك التى لايعرف حتى المشاركون فيها كيف نشبت ولماذا ؟ .. وأينما وليت الوجه فثمة معركة تتصل من قريب أو من بعيد بالأمة العربية . لقد قال الماريشال ماك لوهان فيما كتبه عن « الإعلام » أن الأرض قد أصبحت بفعل تقدم وسائل الاتصال قرية . إذا كان هذا صحيحا فإنها قرية يحكمها ملوك المال وملوك السلاح . وملوك الدعاية وملوك الصهاينة . والملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها . هى إذن قرية يعيث فيها فسادًا ذوو القوة القادرين على البطش بالشعوب من أهلها . ونحن العرب . لنا فى هذه القرية دور ودروب وأغراض وأعراض لابد من الدفاع عنها . المعارك إذن . حتى العالمية . تدور فى دورنا ودروبنا فسنجد دائما من يقاتلنا فنقاتله .. سقط العذر إذن . فلنكتب ولنستعن فى المرحلة الأولى بما كتبنا من قبل ولم ننشره حتى لانثير معارك فى غير أوانها .. ولو لفترة قصيرة ..

ارتد أنور السادات بمصر الدولة عن الاتجاه القومى لثورة يوليو الناصرية . أصبح إيقاف الردة وإنقاذ مصر من التردى الإقليمى بعد أن كانت مركز قيادة الحركة القومية . أصبح هدفا قوميا وأصبحت به مصر القضية المركزية للنضال القومى . هذا قلناه . مالم نقله أن تحقيق هذا الهدف أصبح متوقفا على حجم وتنظيم ونشاط القوى الجماهيرية التى تناضل من أجل تحقيقه . وقد استطاع فعلا أن يستقطب إلى ساحته قوى شعبية كثيرة ومتنوعة وإن لم تكن منظمة . كما استطاع أن يكسب مواقف بعض الأحزاب الرسمية . ولم يكن ذلك كافيا لإيقاف اندفاع دولة السادات إلى الهاوية الفرعونية . كانت أعرض القوى وأكثرها مقدرة على التأثير فيما لو التحمت تنظيميا . فناضلت هى القوى الناصرية . كان لدى كل ناصرى أكثر من سبب لإيقاف ردة السادات . وكان السبب القومى واحدا سائدا من الأسباب التى تحرك الشريحة المثقفة وذوى الخبرة من الناصريين . ولكن الجموع الناصرية الشعبية ذات الأغلبية الكاسحة كانت تنفعل بدرجة أكبر للأسباب الاقتصادية والاجتماعية التى تحققت لها فى عهد عبد الناصر . المهم أن الناصريين كانوا . ومايزالون على ما أعتقد . أكثر عددا وأكثر انتشارا على المستوى الشعبى من أية قوى أخرى .. وكان عليهم أن يتحولوا من تيار شعبى

غير منظم إلى قوى جماهيرية منظمة . إلى حزب . ولكنهم كانوا يواجهون فى سبيل ذلك عدة عوائق ذات طبيعة نظامية وتاريخية لم يواجهها ولايواجهها مجتمعة حتى الآن أى تيار آخر . منها عداء الدولة وإنكار شرعية التنظيم عليهم . ومنها غياب الخبرة بالتقاليد التنظيمية لدى الجيل الجديد . ومنها افتقاد قيادة محورية مقبولة من الجميع . ومنها الناصريون « الرماديون » الذين أرادوا أن يكونوا ساداتيين فعلا جلبا للكسب الحالى وناصريين قولا ليستحقوا الكسب المحتمل ، فأضعفوا أثر الفرز الحاد الذى كان كفيلا بأن يخدم هدف التحام الناصريين قولا وفعلا فى حزب ، ومنها أخيرا وليس آخرا عقبة كيفية التنظيم ، الصيغة التقليدية هى أن تلتقى أقلية من الصفوة على مبادئ يصوغونها ثم يدعون الناس إلى الالتحاق بهم ، أو يستقطبونهم أفرادا حتى يكون للهرم الذى بدأ من قمته قاعدة جماهيرية كافية لحمل ثقل مبادئه فيستقر . مشكلة الناصريين أنهم يكونون قاعدة جماهيرية عريضة لابد أن يبدأ منها بناء هرمهم التنظيمى . وهى مشكلة عويصة لأنها كانت تقتضى قبل أى بناء تنظيمى التحقق من أن كل فرد من القاعدة ناصرى . وكان هذا التحقق يفتقد المعايير الموحدة كما يفتقد الحكم المقبول من الجميع أو حتى من الأغلبية ليتولى الفرز على ضوء تلك المعايير . باختصار ، كان مطلوبا لتسهيل مهمة تحول الناصريين أو أغلبهم إلى قوة منظمة الإجابة على سؤال : « من هو الناصرى ؟ » ولم يكن ثمة أجابة على السؤال إلا قول الموجه إليه فردا .. ولم يكن ماينسبه كل فرد إلى نفسه كافيا أو ملائما لبناء تنظيم .. ولقد استطاع الناصريون أن يتحولوا عن طريق تفاعل قريب الشبه من التفاعل الكيماوى من أفراد (ذرات) إلى جماعات (بلورات) وأن تتجمع البلورات فى كتلة (حزب تحت التأسيس) يقاوم ذوبان كل أفرادها وجماعاتها أفراد وجماعات . فأصبح محتوما عليهم جميعا أن يجيبوا على السؤال المؤجل : « من هو الناصرى ؟ »..وهم فاعلون إن شاء الله ..

أياما كان المستقبل ضمن منطلق الولاء القومى ووعى أبعاد وقوى المعركة القومية التى أصبحت مصر ساحتها ، رأى القوميونأنه واجب قومى عليهم نحو أمتهم أن يبذلوا كل مايستطيعون من جهد للإسهام أو المساعدة على أن يلتحم الناصريون فى تنظيم هو القادر بجماهيره على أن يحسم المعركة ضد الردة لصالح مصر العربية كما يمكن أن يكون فى مرحلة لاحقة وبعد النصر فى الإقليم القاعدة قابلا للنمو تنظيما قوميا .. وانخرط كل القوميين من الشباب فى صفوف المشروع القومى ورفعوا مع غيرهم راية « الناصرية » .. ومايزالون ..

هنالك ، منذ البدايات المبشرة ، قدرت أن أوفى بواجب أعتقد أننى قادر على الوفاء به : أن أنشىء وأنشر دراسة أجتهد فى أن تكون علمية وموضوعية تجيب على السؤال : « من هم الناصريون » علّها تساعد الناشئة من الشباب على فرز قواهم

واختيار رفاق نضالهم بدون مخاطر الاحتواء أو الاختراق أو بأقل قدر من تلك المخاطر .. فبدأت فى إنشائه عام ١٩٨٣ على ما أتذكر . فلما فرغت من كتابة جزء كاف منه أقرأته بعض الشباب الناصرى الذين كانوا ومايزالون على صلة حوار مستمر معى . فاقترحوا تأجيل إتمامه ونشره متحججين بأنهم ، طبقا لمقتضيات المرحلة ، وهم أعلم بها منى،فيرون أن الكتابة فى هذا الموضوع ستضيف إلى متاعب اتفاق الناصريين متاعب الخلاف حول إجابة مطروحة عن السؤال : « من هو الناصرى » . وإن الوقت الملائم لمثل هذا الطرح لم يأت بعد ، فلم أستمر فى الكتابة تقديرا لموقفهم من ظروف هم أعلم بها منى لأنها ظروفهم .. وقد ثبت صحة تقديرهم فعلا ، إذ استطاعوا بدون إجابة على السؤال المؤجل أن يقفوا على أعتاب التنظيم الذى استهدفوه .

ولكن ، الآن يقرأ كل ناصرى على المدخل الأخير إلى رحاب التنظيم لافتة من المستقبل تقول : « من أجل سلامة التنظيم وانتصاره لايدخل إلا الناصرى » ولابد لهم من « معيار » لمن يدخل حتى لاتنتهى كل الجهود الشاقة الصادقة التى بذلت من أجل تنظيم القوة المرشحة تاريخيا وواقعيا لاسترداد مصر إلى الأمة العربية .. إلى الفشل .. أو الانشقاق ..

فعدت إلى ما بدأت أكمله .. لأنشره حديثا « عن الناصريين .. وإليهم » .. إسهاما بقدر ما أستطيع فى حوار بدأ همسا ولابد من أن ينتهى إلى مايحقق الغاية القومية من التحام الناصريين فى تنظيم يحقق الهدف القومى الملح الذى أشرنا إليه .

والله ولى التوفيق

عصمت سيف الدولة

(١)
عن الناصريين ؟

ملخص مالم ينشـر :

.... وكنت قد تلقيت قبيل وفاة عبد الناصر دعوة من قيادة الثورة فى ليبيا إلى زيارتها وإلقاء سلسلة من المحاضرات بمناسبة البدء فى تنظيم الجماهير على غرار الاتحاد الاشتراكى العربى فى مصر . فلما غاب عبد الناصر اعتذرت عن عدم الوفاء بالزيارة لأسباب خلاصتها أن ما كان يمكن أن يقال فى حياة عبد الناصر لم يعد قوله مجديا بعد وفاته إذ أن الأمة العربية مقدمة على مرحلة مغايرة نوعيا لما كانت عليه . فجاءنى رسول يحمل إلىّ تأكيدا للدعوة بحجة أن الزيارة قد أصبحت أكثر لزوما من ذى قبل فزرت ليبيا لأول مرة فى ٢٠ أكتوبر ١٩٧٠ ..

فى أول لقاء مع أعضاء مجلس قيادة الثورة طرح علىّ سؤال لم أكن أتوقعه : كيف يمكن إنشاء التنظيم القومى الذى مافتئت تدعو إليه مع التسليم بأنه أصبح لازما حيويا بعد وفاة عبد الناصر ؟ فأجبت . والناصريون يسألون وأجيب ويسألون وأجيب إلى أن انتهى الحوار إلى اقتراح من جانبى بنقطة البداية : إعداد « مشروع » وثيقة فكرية تطرح على كل القوميين من الدارسين والمثقفين فى الوطن العربى . ليبدوا أراءهم فيها مكتوبة خلال مدة معينة . يقوم جهاز خاص بتلقى الردود وإعادة صياغة المشروع الأول على ضوء ملحوظات القوميين . ثم توجه إليهم دعوة لعقد مؤتمر تأسيسى تتم خلاله دراسة وبلورة وصياغة الوثيقة الفكرية لتعبر عن المبادئ التى يلتقى عليها القوميين ويتميزون بها عن غيرهم من القوى . ثم يضع المؤتمر لوائحه الداخلية التى تكفل أن يكون التنظيم فوق قيادته فى كل الظروف . وينتخب القيادة . ثم تبدأ المسيرة .. إلخ . وأضفت أنه من أجل اجتناب سلبيات الخلط « العربى » بين الذات والموضوع أقترح ألا تحمل « الوثيقة ـ المشروع » اسم أو أسماء واضعيها بالرغم مما فى ذلك من حرمان من شرف إعلان مساهمتهم فيها . سئلت . وكان السائل . إذا لم تخنى الذاكرة . عبد السلام جلود : ومن يضع مشروع الوثيقة هذه ؟ .. قلت : لا أدرى ومع ذلك فما دمت أنا الذى اقترحت أن يحرم واضعوها من شرف إعلان مساهمتهم فيها فإنى مستعد أن أضعها . وأن أساهم فى وضعها .. وافترقنا على عهد بأن أبدأ هذا المشروع . ثم .. جرت أحداث لامحل لها هنا . فى يناير ١٩٧١ قابلت السيد شعراوى جمعة . وزير الداخلية حينئذ . بناء على طلبه . وبعد حديث طويل عن أفكار ومواقف وأشخاص يدور حول « الحركة العربية الواحدة » (الاسم الذى أطلقه الرئيس عبد الناصر على التنظيم القومى) . وأسباب فشل مشروع إنشائها عن طريق

جهاز المخابرات . ورفضى منذ البداية المساهمة فى مشروع فاشل بحكم بدايته .. إلخ . سأل السيد شعراوى : إذن كيف يمكن تأسيس الحركة العربية الواحدة مع تلافى أسباب الفشل التى ذكرتها ؟ فأعدت عليه حرفيا الجواب التفصيلى الطويل الذى سمعه الناصريون فى ليبيا والذى كانت بدايته « مشروع وثيقة فكرية » . وافترقنا متفقين على أن أضع مشروع الوثيقة من أربع نسخ أرسل واحدة منها إلى طرابلس وأحتفظ لنفسى بواحدة . وأقدم إليه اثنين . واحدة له . وواحدة لقيادة تنظيم « طليعة الاشتراكيين » . ولماذا طليعة الاشتراكيين ؟ .. قال لأنه قد انتهى الأمر فى قيادته إلى البدء فى بناء الحركة العربية الواحدة حتى تملأ الجماهير العربية المنظمة الفراغ الذى تركه الغياب المفاجئ لقائدها .

كانت أغلب « المادة » اللازمة لصياغة تلك الوثيقة متوافرة لدىّ فى شكل دراسات متفرقة . ولم يكن ينقصها إلا أن تصاغ . ولكن ـ وكان هذا جوهريا ـ بعد أن تستوفى شكلا ومضموناً ماتصح به نسبتها إلى الناصريين كمشروع يناقشه ناصريون كبداية لتأسيس « حركة قومية » ..

واعتزلت الناس وعلى سبعة أشهر بكل أيامها ولياليها وساعاتها ودقائقها إلى أن أكملت « صياغة » مانشر بعد ذلك (١٩٧٢) تحت عنوان « نظرية الثورة العربية » . كان ذلك فى يوليو ١٩٧١ . ولكن فى يوليو ١٩٧١ كان قد مضى شهران على انقلاب ١٥ مايو ١٩٧١ الذى أطاح فيه السادات بكل رموز الناصريين فى مصر . وكان شعراوى جمعة . الطرف الثالث فى التوافق الذى تم . مسجونا فلم أقدم إليه نسخة (الواقع أننى أرسلتها إليه خفية مع أحد حراس السجن الذى زعم أنه سلمها إليه يدا بيد . وقد نفى السيد شعراوى جمعة ـ فيما بعد رواية الحارس . وهو أصدق قطعا) . لم يكن انقلاب السادات مفاجأة لى . ولكن المفاجأة الحقيقية كانت تصديق قيادة الثورة فى ليبيا لمزاعم السادات الوحدوية وانحيازهم إليه فى صراع مايو ١٩٧١ . لم أر من مبررات ذلك الانحياز إلا أنه تفضيل « دولة » التعامل مع الرئيس الشرعى « لدولة » . ولما كان هذا التفضيل يتناقض جملة وتفصيلا . مضمونا وصياغة . مع كل معنى وكلمة جاء فى « نظرية الثورة العربية » فإننى لم أجد مبررا لإرسال النسخة الموعودة إلى طرابلس .

وحملت كتابى كما هو إلى الرقابة فى القاهرة أطلب التصريح بنشره . رفض طلبى بعد محاورات ومناورات لم أعرف دلالتها إلا فيما بعد . فأرسلته إلى بيروت موصيا بتسليمه إلى دار الطليعة . فذهب الصديق يحمله فى يوم كان رب الدار فيه غائبا . فلم ينتظر إلى الغد . وعهد بنشره إلى الدار التى تصادف أن كانت فى ذات الطابق من البناية ذاتها ..

على أى حال . قبل أن ينشر الكتاب . قبض علىّ (١٦ فبراير ١٩٧٢) وحملت

عنوة إلى سجن القلعة لأسباب مصطنعة كثيرة.. ولكن حينما بدأت المحاكمة وأراد الذى ظلم نفسه وظلم غيره أن يخرج من الهاوية التى تردى فيها ، أقر أمام المحكمة بأنه كان مسخرا من أجهزة الأمن لمراقبتى منذ سنين ، وأنه سخر للإيقاع بى على وعد بألا يقع هو ، و .. و .. أن السبب الحقيقى وراء الاتهام والمحاكمة هى قصة « إنشاء ونشر كتاب نظرية الثورة العربية » وعلاقتها بإنشاء التنظيم القومى اتفاقا مع الناصريين ..

أقول هذا فى بداية الحديث « عن الناصريين .. وإليهم » لأن هذا ذاته سيكون نهايته . أريد أن أقول ، بأكبر قدر من الوضوح ، أننى كنت ولم أزل على يقين يتحدى أى شك بأن « الناصرية » هى « نظرية الثورة العربية » ، وأن الناصرى هو من يقبلها ويلتزمها وينميها بخبرة ما انقضى من سنين الردة ولكن طبقا لمنهجها ، ومن منطلقاتها ، إلى غاياتها ، بأسلوبها . وأن من يناقضها منهجا أو منطلقا أو غاية أو أسلوبا لايستحق عندى على أى وجه أن ينسب إلى الناصرية ولن تثبت نسبته إليها ولو كانت بيده شهادة موقعة من عبد الناصر شخصيا . كل مافى الأمر أنه لايملك أحد حق إنكار الهوية الناصرية على من ينسب نفسه إليها ، ولايملك أحد حق منحها لمن لاينتسب إليها . ولا أحد يملك الختم الرسمى للناصرية ليبصم به على رءوس الآخرين من خارج الجماجم أو فى داخلها . ولكن ليس معنى هذا أن الناصرية هواية شخصية وليست هوية فكرية . أو أن الأمر منها ماقاله أحد كبار هواتها حينما سئل عنها فقال يوجد ناصريون ولكن لاتوجد ناصرية . لقد آن الأوان لهذه الفوضى فى التفكير أن تنتظم حتى تستطيع القوى الناصرية أن تلتحم . ولما كان التحام الناصريين ضرورة قومية فإنا نقدم هذا الحديث عنهم وإليهم وفاء منا بمسئوليتنا القومية علـه يسهم ولو بقدر فى أن يفرز الناصريين عن أدعيائهم ، كشرط أولى لالتحام الناصريين فى تنظيم .

لماذا الناصرية ..

الناصرية تعبير متداول على نطاق واسع فى الوطن العربى وخارجه . لايستطيع أحد أن ينكره أو يتجاهله . ولكننا لانستطيع أن نتجاهل أو ننكر أن دلالته لم تتحدد بعد .. نعنى بتحديد دلالة التعبير أن يكون مضمونه متميزا بحيث يقطع سبل الخلط أو الاختلاط بالمضامين القريبة منه بصرف النظر عن قبوله أو رفضه . ولسنا نعتقد أن أحدا يستطيع أن يجادل « بحق » فى أن تعبير الناصرية المتداول على نطاق واسع فى الوطن العربى وخارجه غير محدد الدلالة على الوجه الذى يمكنه من أداء وظيفة « التميز » و « التمييز » بدون فرض الامتياز . نعنى أن يتميز مضمونه عن غيره من المضامين الفكرية خاصة القريبة منه وليس المناقضة له فقط . ونعنى بالتمييز أن

يكون ممكنا بالقياس إليه تمييز من يقبلونه عمن لايقبلونه وليس عمن يرفضونه فقط .

كما أننا نعتقد أن أحدا لايستطيع أن ينكر « بحق » ماهو واقع من أن تعبير الناصرية « مطروح » للدلالة على أفكار ومواقف بالغة الاختلاط والاختلاف والتناقض فى بعض الحالات . طبيعى بعد هذا . أن يكون متاحا سهلا لكل رافع لشعار « الناصرية » على أفكاره أو مواقفه أن يزعم أن تلك هى الناصرية الحقة وأن يجادل بها وفيها غيره من الناصريين أو غيرهم وأن يتحول الجدل إلى لجاجة فخصومة فقطيعة فعداء فتكاد تتخم الأرض العربية بالأفراد والشلل والجماعات والأحزاب كل يزعم أنه ناصرى ويحبس الناصرية عليه وحده ويحبسها عن غيره ولايلتقون . إنه أيضا واقع محسوس يؤكد أن تعبير « الناصرية غير محدد الدلالة وإلا فما هى الناصرية ؟

إلى كل الذين يبحثون عن الجواب الصحيح نقول اجتهادا . إن الجواب الصحيح على السؤال : ماهى الناصرية ؟ متوقف على الجواب الصحيح على سؤال قبله : لماذا الناصرية ؟ إن كانت الغاية من تحديد دلالة « الناصرية » التأريخ لفكر عبد الناصر فإن « الناصرية » هى مجمل الأفكار التى طرحها الرئيس الراحل عبد الناصر من أول « فلسفة الثورة » وما قبله إلى « الميثاق » وما بعده لا تستبعد منها فكرة . أو كل هذا بعد تبويبه وتحليله . هذه الناصرية متاحة منذ وقت بعيد . وقد أنجز عبد الناصر قدرا كبيرا منها حين صاغه فى « الميثاق » فما على الذين يريدون « الناصرية » بهذه الدلالة إلا أن يكملوا ما بدأ عبد الناصر ليضيفوا إلى عشرات الكتب التى تناولت « الناصرية » بهذه الدلالة كتابا أو كتبا جديدة . وسيكون كل هذا مفيدا من حيث هو يحفظ التراث ويلبى حاجة المؤرخين والدارسين للتاريخ لا أكثر . أما إذ كانت الغاية من تحديد دلالة « الناصرية » الإعداد لمواجهة المستقبل وصنع تاريخه فإن عبئا جسيما يقع على عاتق أولئك الذين يتصدون لتحديد دلالة « الناصرية » وربما كانت جسامته هى السبب فى أن أحدا من القادرين لم يتصد له بعد وإن كان كثير منهم قد حاموا حوله وانتهى بهم المطاف إلى ما أعجبهم من أفكار عبد الناصر فأسموها « الناصرية » .

فلماذا الناصرية ..

نحسب أن عشرات الألوف . مئات الألوف . وربما الملايين من البشر على امتداد الوطن العربى يريدون أن « يكملوا المشوار » .. مشوار عبد الناصر .. ينتمى القدر الأكبر من هؤلاء إلى الجيل العربى الجديد . منهم من لم يعرفوا عبد الناصر ولم يعاشروه ولم يصادقوه ولم يسهموا معه فى ثورة ١٩٥٢ . بعضهم التقى به موقفا وبعضهم ناضل تحت قيادته . وبعضهم تلقى عنه أو استمع إليه أو قرأ له أو عنه ولكنهم . بحكم

السن . لم تتح لهم معرفته شخصا . أو لقاؤه موقفا . أو العمل تحت قيادته . وغير هؤلاء جميعا عشرات الملايين من الفلاحين والعمال والبدو والفقراء الكادحين يتمنون لو أن قد « أكمل المشوار » .. أولئك لم يعرفوا عبد الناصر إلا من خلال المكاسب العينية من مأكل ومشرب ومسكن وعلم وتعليم وصحة وعلاج طورت حياتهم إلى أكثر مما كانوا يتوقعون وماتزال مرتبطة فى أذهانهم بعبد الناصر وعهده . كل هؤلاء منثورون على الأرض العربية فى المدن والقرى والكفور وفى البرارى وفوق قمم الجبال .

ماكان كل أولئك فى حاجة إلى « ناصرية » لو أن الحياة فى الوطن العربى قد اطردت تقدما فى الاتجاه الذى سار فيه عبد الناصر . ماكان أولئك فى حاجة إلى « ناصرية » لو أنهم التفوا بعد وفاة عبد الناصر بمزيد من الحرية . بمزيد من الاشتراكية . بمزيد من التقدم نحو الوحدة .

ولكن لأسباب كثيرة ـ قد نعرض بعضها ـ حدث فى مصر أن أوقفت حركة التطور بعد غياب جمال عبد الناصر ثم ارتدت ثم انطلقت راجعة فى اتجاه مضاد لاتجاهها قبل وفاته . كل القوى التى عجزت عن إسقاط قيادة عبد الناصر أو اتجاهها التقدمى أثناء حياته . وإن كانت عوّقته . قبلت فرصة وفاته لتوقف الاتجاه التقدمى ثم ترتد به ـ قسرا ـ راجعة إلى ماقبل ثورة ١٩٥٢ . مصفيّة فى طريقها مكاسب المرحلة التاريخية التى بدأت عام ١٩٥٢ . من القيادة الدولية لحركة عدم الانحياز والمركز المرموق بين قادة حركة التحرر العالمى إلى التبعية للولايات الأمريكية قائدة إمبريالية الاستعمار الجديد . من القيادة الثورية للأمة العربية على طريق التحرر والوحدة العربية الشاملة . إلى الاعتراف بالاغتصاب الصهيونى لفلسطين العربية ثم الانحياز إلى إسرائيل فالعزلة الإقليمية ثم العداء السافر لوحدة الأمة العربية .. من تحرير الفلاحين والعمال من الاستغلال وتحرير الفقراء الكادحين من العوز وفتح أبواب الممارسة الديمقراطية فى صيغ شتى من الديمقراطية الشعبية إلى ليبرالية شائهة تحرم فيها الجماهير من كل صيغ الممارسة وتصطنع فيها الأحزاب اصطناعا ثم تقيد بألوانٍ مبتكرة من قيود القهر الفكرى على كل فكر . والقهر الحركى على كل حركة . والقهر القانونى الذى يضفى الشرعية الشكلية على الاستبداد . من الاستقلال الاقتصادى الكامل والتخطيط الاشتراكى الشامل والتنمية مطردة التقدم إلى التبعية الاقتصادية وفتح أسواق مصر لقانون المنافسة المخرب . والانفتاح على أزمة الاقتصاد الرأسمالى المعاصرة لتغرق مصر ببضائعها الاستهلاكية وأسعارها الخرافية وتصفيتها التدريجية لقاعدة الإنتاج الصناعى التى بنتها مصر حصنا لاستقلالها الاقتصادى ومنطلقا لرخائها المنشود . من مجتمع يبذل من جهده مايطيق وفوق مايطيق ليعوض مراحل التخلف ويلحق بركب التقدم الإنسانى . إلى مجتمع يبذل من جهده مايطيق وفوق مايطيق ليحفظ لنفسه الحياة . حتى لايموت جوعا .

ومصر ذات الثقل الاجتماعى والثقافى والسياسى الذى أهلها ويؤهلها دائما لقيادة الظروف العربية فى الاتجاه الذى تختاره . كانت قد اختارت الحرية فتحررت شعوب الدول العربية وكانت قد اختارت الوحدة فلم يستطع واحد . أى واحد . من ملايين الشعب العربى أن يجهر بعدائه للوحدة ولو كان عدوا لها . ثم غير الثقل التاريخى اتجاهه هاويا فجر معه الأمة العربية كلها وقادها إلى التمزق الإقليمى . والصراع الإقليمى . والعجز الإقليمى . وأغرقها فى الصراعات العشائرية والمنافسة القبلية . والحروب المحلية . فمكن أعداء لها من العودة إلى السيطرة على أجزاء منها . وأصبحت فيها قواعد عسكرية . وحكام عملاء . وأحزاب خائنة . وتطلع يكاد يكون جماعيا إلى حماية أجنبية تحرس أو تحمى كل قطر من مخاطر خارجية أو تحمى حكامه من مخاطر داخلية . ولم يحدث فى التاريخ العربى كله أن تأكد أن « مصر جزء من الأمة العربية » كما تأكد حين انتكست مصر فانتكست الأمة العربية بالرغم من كل الجهود التى بذلت لمقاومة الانتكاس . كانت القوانين الموضوعية التى تحكم حركة أمة واحدة أقوى من كل الإرادات وكل النوايا .

وكان مثيرا للدهشة ثم للغضب أن قادة الردة هم ممن كانوا يحيطون بعبد الناصر ويذهبون فى التعبير عن الولاء لشخصه إلى حد تحريم كلمة « لا » فى مواجهته وتكفير نقده . نافقوه حيا حتى المذلة ونافقوه بعد مماته فركعوا أمام تماثيله الصماء . ولبسوا قميصه إلى حين . أولئك الذين لم يكن أحد ليجرؤ على إنكار أنهم هم « الناصريون » أياما كان مفهوم « الناصرية » فى حياة عبد الناصر . فقد كانوا حريصين على أن يجمعوا فى أشخاصهم علاقة الولاء وعلاقة الانتماء وعلاقة الوفاء وعلاقة الرجاء . أولئك الذين كانوا يحتكرون كهانة معبد « الناصرية » ويقيمون من أنفسهم طبقة عازلة بين القائد والجماهير ويصدرون أحكام الحرمان وأحكام القبول إلى ساحة الثورة . أولئك الذين نثروا بأيديهم على ثياب الثورة ما علق بها من نقاط سوداء ثم عادوا يشيرون إليها بأصابعهم العشرة . هم الذين كانوا مع « الديكتاتورية » منذ بداية الثورة . وهم الذين كانوا قضاة المحاكم الاستثنائية . وهم الذين أصدروا أحكام الإعدام ونفذوها . وهم الذين حولوا زنازين المخابرات العامة والبوليس الحربى إلى أماكن تعذيب سجون . وهم الذين عفوا بعد ذلك عن المجرمين وسهلوا لهم الإفلات من نفاذ أحكام القضاء . وهم الذين أنشأوا وقادوا هيئة التحرير وهم الذين أنشأوا وقادوا الاتحاد القومى وهم الذين أنشأوا وقادوا الاتحاد الاشتراكى العربى . وهم الذين نكصوا عن الإسهام فى تنمية « وطنهم » فلم يستطع أن ينعم بخطة اقتصادية ثانية . وهم الذين كانوا مديرين للقطاع العام فنهبوه وأفشلوا ما استطاعوا من مؤسساته . وهم رجال الدولة التى انهزمت فى ست ساعات عام ١٩٦٧ . وهم الذين ألهوا القائد فمنحوه تفويضا مطلقا بأن يفعل مايشاء بعد هزيمة ١٩٦٧ . إلى آخره .

وكان أكثر ما أثار الاشمئزاز واستفز المشاعر أن المرتدين قد استجلبوا الهاربين من مخابئهم وكانوا هم الذين حملوا عليهم حتى هربوا ، ثم مكنوهم من إشفاء غليل الحقد على الرجل الذى قاد حركة تطهير المجتمع منهم . وحل فجر العداء لعبد الناصر الميت محل ذل الرياء لعبد الناصر الحى .

هنالك بدأ تصاعد رد الفعل ضد الردة . بدأت معارضة صامتة ثم معارضة ناطقة ، فعاد أبطال الردّة إلى ماخلفه المستعمرون وأعداء الأمة العربية . استعاروا أسلوبهم « الخبيث » فأرادوا أن « يقلبوا العملية كلها إلى شخص عبد الناصر » ليخلصوا من تيار المعارضة كله ، فأسموا كل معارض « ناصريا » أو « مدعيا للناصرية » . وأدين كثيرون بأنهم « ناصريون » وسجن كثيرون لأنهم « ناصريون » أو هكذا قيل عنهم ولو كانوا هم لايعرفون ماهى « الناصرية » . وبدت حركة الردة منتصرة أو انتصرت فعلا ولكنها من موقع انتصارها ذاته ، وبانتصارها ذاته ، قد خلقت هى ذاتها الحاجة الملحة إلى « الناصرية » هكذا سيشهد التاريخ لاريب فيه .

لم يكن انتصار الردة راجعا إلى قوة المرتدين بل إلى ضعف المعارضة ، وعلى وجه خاص إلى ضعف الناصريين . ولم يكن ضعف الناصريين راجعا إلى أنهم أقلية فلقد كانوا بأنفسهم وبمن معهم أغلبية ساحقة من الشعب العربى فى كل موقع . كان عجز الناصريين عن « الوحدة » التى يتحولون بها من أفراد وجماعات إلى « قوة » هو مقتلهم من ناحية ، وهو الذى مكن المرتدين من تحقيق نصر لايستحقونه من الناحية الأخرى . وكما يشهد التاريخ بأن المرتدين قد خلقوا الحاجة إلى « الناصرية » سيشهد التاريخ بأن « الناصريين » قد أسهموا ، بعجزهم عن الوحدة ، فى خلق الردة وأنهم مسئولون تاريخيا عن انتصارها . ومنهم من يدركون الآن مسئولياتهم ويدركون أن وحدتهم لم تعد اختيارا خاضعا لتقديرهم بل هى حياة أو موت بالنسبة إليهم جميعا . حياة تاريخية أو موت تاريخى . فلما برزت وألحت حاجاتهم إلى الوحدة برزت وألحت حاجتهم إلى « الناصرية » ذات المضمون المحدد الذى تصلح به لالتقائهم عليها والتزامهم بها واحتكامهم إليها عند الخلاف . إذ بها يمكن أن تتحقق وحدتهم وبدونها لن تتحقق وحدتهم أبدا .

لماذا « الناصرية .. إذن ؟ .. من أجل وحدة الناصريين .

متى الناصرية ؟

ولماذا وحدة الناصريين ؟ .. من أجل إيقاف الردة وتصفيتها ثم استئناف المسيرة التقدمية إلى المستقبل . لابد هنا من الانتباه إلى الفرق بين هدف إيقاف الردة وتصفيتها وبين هدف استئناف المسيرة إلى المستقبل . إن الهدف الأول رد على فعل

الردة . وهو غير مقصور على الناصريين . ولكن الناصريين لايستطيعون أن يشاركوا فى تحقيقه إلا بوحدتهم . ونتيجته فى النهاية دفاعية مؤقتة . وقد يمكن أن توجد « ناصرية » كافية لتوحيد الناصريين عليها كما وحدت الأهداف الستة قوى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . ولكنها وحدة ما أن تنتصر حتى تنفرط كما انفرطت وحدة « الضباط الأحرار » ومجلس قيادتهم بعد انتصار ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . أما هدف استئناف المسيرة إلى المستقبل فهو فعل إيجابى لاتكون الردة بالنسبة إليه إلا عقبة يجب أن تزول لتفسح الطريق إلى بناء الحياة إيجابيا . إن « الناصرية » بهذه الدلالة تحقق وحدة الناصريين . ثم تمكنهم من أن يوقفوا الردة ويصفوها . ولكنها تتجاوز هذا إلى تسليحهم بما يحفظ وحدتهم إلى مستقبل أبعد . رؤية فكرية متكاملة للمجتمع كما يجب أن يكون . متى ؟ .. بعد إيقاف الردة وتصفيتها . إن « الناصرية » بهذه الدلالة ليست رؤية فكرية للمجتمع الذى قاد حركته عبد الناصر حتى سنة ١٩٧٠ وليست إدانة فكرية لمجتمع ارتدت حركته بعد وفاة عبد الناصر عام ١٩٧٠ . ولكنها الرؤية الفكرية لمجتمع يناضل الناصريين من أجل تحقيقه فى المستقبل .

الغاية من تحديد دلالة « الناصرية » إذن . هى الإعداد لمواجهة المستقبل وصنع التاريخ وليس دراسة الماضى لكتابة التاريخ . الغاية « ناصرية » المستقبل وليس « ناصرية » الماضى .

□□□

(٢)

ناصـريـون ... لا .

ناصرية مستحيلة :

إن كان ماسبق صحيحا ، وهو عندنا صحيح .. فقد كان مستحيلا أن توجد « ناصرية » المستقبل فى الماضى . كان مستحيلا أن توجد « ناصرية » فى حياة الرئيس جمال عبد الناصر وذلك لأسباب تاريخية كثيرة . قد لايرضى هذا الذى نقول كثيرا من « الناصريين » أو « أدعياء الناصرية » . ولن يكون هذا غريبا . ذلك لأنه يجرد كثيرين من قميص عبد الناصر الذى لبسوه ليستروا عوراتهم . ولقد كانت أقبح عوراتهم الرغبة الجبانة فى أن ينقض كل بناء اجتماعى تقدمى تم فى عهد عبد الناصر ولكن بما « للورثة » من حق التصرف فى التركة وليس بما للأعداء المتربصين من مقدرة على الهدم . إنها « ناصرية » ١٩٧٠ ـ ١٩٧٣ التى دخل بها الورثة إلى الشعب يحملون على صدورهم شارات الحداد على عبد الناصر ، ويرتلون قصائد الرثاء للقائد الفقيد ثم يتلون على مسامع الشعب الحزين وصايا ينسبونها إليه . كل هذا وهم يخفون تحت قميص عبد الناصر معاول هدم كل ما أنجز فى حياة عبد الناصر . ولن يرضى هذا الذى نقوله فريقا من هؤلاء « الناصريين » أو أدعياء الناصرية كانوا يودون ـ لو استطاعوا ـ أن يمتد العمر بناصرية ١٩٧٠ ـ ١٩٧٣ حتى تتم تصفية مرحلة عبد الناصر بذكاء ولباقة وخفية بدلا من التنطع والفظاظة والفجر فى العداوة . ولقد كان غطاء « تطوير الناصرية » كفيلا بأن يستر عوراتهم كما فعل بكثير من الذين مازالوا يطورون الماركسية حتى قبروها وأقاموا على قبرها نصب أفكارهم « الماركسية » .. نعم ، لن يرضى هذا الذى نقوله .. كثيرا من الذين تقدموا إلى الشعب ، بعد وفاة عبد الناصر ، يحملون شهادتين : شهادة وفاة عبد الناصر وشهادة من التاريخ بأنهم « ناصريون » فلننظر كيف شهد التاريخ « بالناصرية » لمن أصبح انتماؤهم إليها مستحيلا ، لأنها ـ هى ذاتها ـ ناصرية مستحيلة .

فى البدء أطلق تعبير « الناصرية » والناصريين من موقف العداء لعبد الناصر وللأمة العربية . وقد فطن الرئيس جمال عبد الناصر إلى الدلالة العدائية لتعبير الناصرية عندما يجىء من جانب القوى المعادية . قال يوم ٢٠ مارس ١٩٦٣ : « .. خرجوا بعملية الناصريين . طلعوها بعد الانفصال (١٩٦١) . قبل الانفصال ماكانش فيه حاجة اسمها ناصريين . أعداؤنا ، علشان يمثلوا العملية بشخص ويركزوا عليه ، قلبوا العملية كلها إلى شخص عبد الناصر وبدأوا الحملة عليه وعلى اللى سموها الناصرية والناصريين . ماكانش فيه حاجة اسمها ناصرية ولاناصريين » . واستطرد شارحا :

« أعداؤنا غرضهم ايه ؟ .. بيعتبروا إن عبد الناصر سار فى الخط العربى . لازم يخلصوا منه .. لكى يخلصوا من التيار كله .. وهذا فى الحقيقة ، عمل فيه نوع من التوجيه المعنوى والخبث فى العمل السياسى » .

هكذا أدان عبد الناصر الدلالة الذاتية « لتعبير الناصرية » وكشف عن البواعث العدائية لها حين يراد بها التعبير عن علاقة بشخص عبد الناصر ، علاقة انتماء أو علاقة ولاء أو علاقة وفاء أو علاقة رجاء ، واعتبر استعمال « الناصرية » على هذا الوجه خبثا سياسيا تمارسه القوى المعادية بقصد قلب الحقيقة ، بتحويل الانتماء من الموقف إلى الذات ، حتى إذا ما قضى على الذات انهزم الموقف .

ولقد انقضت هذه « الناصرية » برحيل عبد الناصر يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ ، إذ بوفاته غاب شخصه فلم يعد أعداء الأمة العربية قادرين على أن « يقلبوا العملية كلها إلى شخص جمال عبد الناصر » الغائب أبدا . وإن فعلوا ، وبعضهم يفعلون ، فإنه ليس خبثا سياسيا بل هى سياسة ساذجة لاتخدع أحدا . وما يخدع إلا الذين توهموا ، أو يتوهمون ، إن الحملة على عبد الناصر الميت تستهدفه شخصيا ، ويغفلون عن أنها حملة ضد الأحياء تستهدف تصفية ما اكتسبوه من منجزات تحققت لهم خلال المرحلة التاريخية التى قادها عبد الناصر . كذلك ينخدع الذين توهموا ، أو يتوهمون ، إن مجرد رد الحملة عن عبد الناصر الميت علاقة يسمونها « ناصرية » ينسبون أنفسهم إليها أو ينسبون إليها غيرهم ويغفلون عن أنها إن لم تكن تصحيحا للتاريخ مما يعنى به المؤرخون ، فهى دفاع عن مكتسبات الشعب التى يراد اختلاسها أو تصفيتها ، وإن الدفاع عن الموتى لاينشئ بينهم وبين المدافعين من الأحياء أية علاقة شخصية . لاعلاقة انتماء ولاعلاقة ولاء ولا علاقة وفاء ولا علاقة رجاء . إنها « ناصرية » مستحيلة .

أضاف عبد الناصر إلى حديثه الذى ذكرناه قوله : « .. حصل بعد كده على أى حال .. ناس تبنوا هذا الكلام وقالوا احنا ناصريين وضربوا أعداء القومية العربية بسلاحهم .. ده شيء مختلف » . لم يقل على أى وجه كان ذلك مختلفا . ربما لأنه كان واضحا من سياق الحديث فى تاريخه . فقد كان الحديث يدور عن مرحلة صعود المد القومى الوحدوى . وفيها كان عبد الناصر يقف موقف الدفاع عن الأمة العربية كلها ضد أعدائها كلهم ، مرحلة قال عنها عبد الناصر إن ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ قد تحولت خلالها من ثورة مصرية إقليمية إلى ثورة عربية . قال يوم ٢٠ مارس ١٩٦٣ : « أيه اللى خلانا يعنى بقينا ممثلين للعروبة ؟ .. اللى اتعمل فى هذا البلد . والثورة اللى قامت فى ٢٣ يوليو .. طلعت ثورة ولم تكتف بأنها ثورة مصرية إقليمية .. اكتشفت حقيقتها .. واتجهت لتكون ثورة عربية » وهكذا حينما اتجهت ثورة ٢٣ يوليو لتكون ثورة عربية اتجه قائدها ليكون قائدا عربيا وقبلته الجماهير العربية تؤيده وتقتدى

به وتتبنى مواقفه وتدافع عنها فكانت « الناصرية » تعنى موقفا مماثلا لموقف عبد الناصر أو مؤيدا له . علاقة لقاء .

ولقد بقيت « للناصرية » هذه الدلالة إلى أن توفى عبد الناصر . وأتى حين من الدهر سادت الوطن العربى . وكان وراء ذلك أسباب تاريخية وحدت بين كثير من مواقف عبد الناصر ومواقف كثير من العرب التقدميين . ذلك لأن المرحلة التاريخية التى قادها عبد الناصر كانت تتميز أساسا بأنها مرحلة تحرر قومى . ومنها استمد جمال عبد الناصر أوضح ميزاته . كان فيها قائد معارك التحرر العربى ضد الاستعمار القديم والجديد والاستيطانى وبطل النضال القومى ضد التبعية بكل أنواعها . وخلالها خسرت حركة التحرر القومى المعركة العسكرية عام ١٩٥٦ ثم استردت كل ماخسرته إلا القليل . انهزمت هزيمة قاصمة عام ١٩٦٧ ولكنها لم تنقصم بل صمدت ثم صعدت لتستأنف المعارك فى حرب الاستنزاف . ولكنها . فى مقابل هذا . كسبت معركة الجلاء عن مصر عام ١٩٥٦ ومعركة تحرير الجزائر ومعركة تحرير العراق ومعركة تحرير اليمن وأسهمت فى كل معارك التحرير حتى خارج حدود الوطن العربى وكسبت حلفاء فى معاركها التحررية من أطراف الأرض جميعا ذادوا عن مصر القاعدة القائدة فلم يجهز عليها العدو بالرغم من أنها كانت مباحة بعد هزيمة ١٩٦٧ ، وأمدوها بما استطاعت به أن تصمد حتى تحقق من النصر ما تحقق فى معركة ١٩٧٣ . إن كل تلك إنجازات غير منكورة تمت تحت قيادة عبد الناصر وبها كسب عبد الناصر عن جدارة مركزه العالمى كواحد من أبطال التحرر القومى فى العالم كله .

ولما كانت معارك التحرر القومى قد تسمح بالتقاء قوى مختلفة المنابع الفكرية والاتجاهات السياسية والمصالح الاقتصادية والوعى الفكرى مادامت ملتقية فى موقفها الموحد ضد الاستعمار فقد التقت مع عبد الناصر قوى وجماهير تتفق فى موقفها التحررى وتذهب فيما عدا ذلك مذاهب شتى . واحتضنت حركة التحرر القومى بقيادة عبد الناصر كل تلك القوى والجماهير ووظفت ـ مااستطاعت ـ كل قادر فيما يقدر عليه . وتجاوزت عن نقاط الاختلاف مركزة على نقاط الالتقاء فقيل عنهم « ناصريين » . حيث « الناصرية » علاقة التقاء بموقف عبد الناصر التحررى . أما مايتجاوز هذه الدلالة من مضامين أخرى ديمقراطية أو اشتراكية أو وحدوية فقد كان لكل واحد فهمه الخاص لها .

ولقد انقضت هذه « الناصرية » برحيل عبد الناصر يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ . إذ بوفاته انقطعت مواقفه فلم يعد أحد قادرا على أن يلتزم بموقف عبد الناصر أو يتبناه أو ينتصر له أو ينصره . ولم يعد فى مقدور أولئك الذين التزموا تلك المواقف أو تبنوها أو انتصروا لها أو نصروها أن يتخذوا من مواقفهم الماضية مبررا لإطلاق تعبير « الناصرية » على مواقفهم الحالية . وإن فعلوا . وكثيرا ما يفعلون . فهو ابتزاز

مخادع . وما يخدعون إلا الذين يعتقدون بالثبات ويجحدون الحركة فينكرون التطور الذى تتغير به الأشياء والناس والظواهر ثم يتوهمون إن كل شىء قد توقف وبقى كما كان منذ توقف قلب عبد الناصر فيعتبرون المفردات من الرجال أو النساء . والجماعات من الناس الذين جمعت بينهم وبين عبد الناصر أثناء حياته علاقة لقاء مواقف أسميت « ناصرية » وكانوا بها « ناصريين » ، مايزالون « ناصريين » وبها تكون مواقفهم « ناصرية » . كلا . إن علاقة اللقاء بمواقف عبد الناصر أثناء حياته قد أصبحت بعد وفاته « ناصرية » مستحيلة .

ثم أنه من المسلم أن ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ قد قامت فى زمانها . تحت ضغط الحاجة الاجتماعية الملحة إلى تغيير نظام واضح الفساد . وقبل أن تكتمل لها رؤية فكرية محددة للنظام البديل (نظرية) . ولقد أقر قائد الثورة . جمال عبد الناصر . بذلك القصور الفكرى وأشار إلى أسبابه حين قال يوم ٢٥ نوفمبر ١٩٦١ : « ناس كثير بيقولوا ما عندناش نظرية . بدنا والله تقول لنا نظرية . فين النظرية اللى احنا ماشيين عليها ؟ .. يقول اشتراكية ديمقراطية تعاونية . ايه هى النظرية ايه هى حدود النظرية . أنا بسأل . ايه هى أهداف النظرية . أنا بأقول إنى ماكنش مطلوب منى أبدا فى يوم ٢٣ يوليو انى أطلع يوم ٢٣ يوليو معايا كتاب مطبوع وأقول إن هذا الكتاب هو النظرية . مستحيل لوكنا قعدنا نعمل الكتاب ده قبل ٢٣ يوليو ماكناش عملنا يوم ٢٣ يوليو لأن ماكناش نقدر نعمل العمليتين مع بعض » .

إن عبد الناصر لم يعبر بهذا القول عن القصور النظرى فى ثورة ٢٣ يوليو فحسب بل كشف عن أسبابه . خلاصة تلك الأسباب أن الظروف الاجتماعية والسياسية التى سادت مصر ماقبل ثورة ١٩٥٢ كانت قد وفرت الشروط الموضوعية للثورة (السيطرة المطلقة لتحالف الاستعمار والإقطاع والرأسمالية على الشعب وثرواته) ولكنها لم تسمح باكتمال نضج الشروط الذاتية . كان لابد . موضوعيا . من الثورة فى أوانها كمحصلة لمرحلة تاريخية سابقة عليها . ولكن من خصائص تلك المرحلة التاريخية ذاتها . ومن دواعى الثورة عليها أيضا . إنها لم تكن تسمح بالنمو الفكرى إلى حد اكتمال نظرية ثورية . كان النظام الليبرالى تحت قيادة تحالف الاستعمار والإقطاع والرأسمالية يسمح بتداول ونمو كل الأفكار حتى الأفكار الصهيونية (كانت الصهيونية تصدر فى مصر عديدا من الصحف والمجلات خلال الفترة من ١٩٢٠ حتى ١٩٤٧ منها « الاتجاه الإسرائيلى » - « إسرائيل » - « الفجر » - « الصوت اليهودى » - « الشمس » - « المنبر اليهودى » . ولكن ذلك التحالف لم يكن يسمح أبدا بتداول أو نمو الفكر الثورى . فكان لابد من الثورة بالممكن إذ لم تكن الظروف الاجتماعية والسياسية ومعدل سرعة تدنيها تسمح بانتظار مايجب أن يكون .

إن تلك الأسباب التاريخية التى تفسر لماذا قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ قبل أن تكتمل لها نظرية ثورية هى ذاتها التى تفسر قيام الثورة بتنظيم وتدبير وفعل مجموعة من ضباط القوات المسلحة تحت قيادة عبد الناصر (تنظيم الضباط الأحرار) وليس بتنظيم وتدبير وفعل حزب جماهيرى ثورى . ذلك لأنها لم تكن تسمح للممارسة الديمقراطية بأن تتعمق وتنمو إلى الحد الذى تستطيع فيه الجماهير امتلاك المقدرة الشعبية على فرض إرادتها . فى عام ١٩٤٦ ثار الشعب ضد اتفاقية « صدقى بيفن » فلجأ إسماعيل صدقى إلى القانون الفاشى الذى أصدره موسولينى فى إيطاليا عام ١٩٣٠ واستعار منه نصا أضافه إلى قانون العقوبات (المادة ٩٨ أ) بفرض عقوبة جسيمة على كل من أنشأ أو أسس أو نظم أو أدار جمعيات أو هيئات أو منظمات ترمى إلى « هدم أى نظام من النظم الأساسية للهيئة الاجتماعية أو إلى تحبيذ شىء مما تقدم أو الترويج له متى كان استعمال القوة أو الإرهاب وأية وسيلة أخرى غير مشروعة ملحوظا فى ذلك » . وطبقا له كانت كلمات مثل « ثورة » أو « اشتراكية » أو « تقدمية » وكل كلمة تدان بها الرأسمالية أو النظام الملكى تتضمن فى ذات دلالتها أن استعمال القوة .. ملحوظ . أما الوسائل غير المشروعة فكان يكفى لها اتفاق شخصين أو أكثر على المساس بالنظام ولو لم يفعلوا شيئا تنفيذا لهذا الاتفاق (المادة ٤٨ من قانون العقوبات) .

وهكذا جاءت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وهى تحمل من سمات القصور الفكرى والتنظيمى مايتفق مع كونها الوليد الشرعى لمجتمع ماقبل الثورة . جاءت مضادة له فى الاتجاه ، وهذا ماكانت به ثورة تستهدف التغيير السياسى والاجتماعى وليس انقلابا يستهدف مجرد الاستيلاء على السلطة ، ولكنها كانت مضادة له كما يضاد اتجاه رد الفعل اتجاه الفعل بدون أن يفقد صلته به أو نسبته إليه . بل يمكن أن يقال . بدون مخاطر الوقوع فى خطأ كبير ، إن ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كانت يوم أن قامت « رد فعل ثورى » على مجامع ماقبل ١٩٥٢ أكثر مما كانت « فعلا ثوريا » ضده . إن صح هذا التعبير . وإن ثورة يقودها عبد الناصر ولكن بدون نظرية لاتنسب إليها أو تنسب إلى « الناصرية » تلك كانت « ناصرية » مستحيلة .

ثم إن القصور الفكرى فى ثورة ٢٣يوليو ١٩٥٢ لم يكن مقصورا على النظرية (الرؤية الفكرية المحددة للمجتمع المستهدفة) بل على ، وربما من باب أولى ، « المنهج » (معرفة واستخدام القوانين الموضوعية لحركة التطور الاجتماعى) . ولما كان تحديد خصائص الأهداف الاستراتيجية أو توقعها مستحيلا بدون الرجوع إلى منهج علمى ، فإن القائمين على ثورة ٢٣ يوليو لم يكونوا قادرين على أن يحددوا مضمونا معينا لأهدافها الستة ولو على المدى الاستراتيجى . كما لم يكن ممكنا لغير القائمين على الثورة أن يتوقعوا ماسيكون عليه مضمون تلك الأهداف الستة أو لأى واحد منها . وقد أدى عجز الثورة عن الوعد والالتزام بمضمون محدد وعجز المثقفين عن توقع وتقييم مضمون محدد إلى خلاف كبير وصل إلى حد المواجهة العدائية بين الثورة وبين كثير من المثقفين والقوى العقائدية (الإخوان ـ المسلمون والماركسين خاصة) الثورة غير قادرة على تحديد مضمون وعودها الستة تحديدا واضحا والمثقفون لايجدون فى تلك الوعود الستة مايحدد مضمونها ولوفى المدى الطويل . والقوى العقائدية تسعى إلى أن تصوغ من عقائدها مضمونا لتلك الوعود . فاحتكموا جميعا . وتحاكموا . على هدى مواقفهم من مرحلة قيام الثورة كواقع متعين بعد أن جرده كل منهم من الحركة المتطورة لعدم توافر العناصر التى تحدد اتجاه تلك الحركة وغاية تطورها (المنهج والنظرية) . ولقد بلغت الأزمة ذروتها فى مارس ١٩٥٣ وكادت أن توئد الثورة الوليدة وبعدها حدثت فرقة استمرت سنين طويلة . قيل إنها أزمة ثقة وقيل إنها أزمة المثقفين .. ولقد كانت ـ فعلا ـ أزمة ثقة المثقفين بالثورة إلا القليل . وأزمة ثقة الثورة بالمثقفين إلا القليل . وكان وراء الأزمة سبب على أكبر قدر من الجدية . الثوار يريدون أن يثق المثقفون بأشخاصهم ونواياهم ويقدمون الثورة ذاتها دليلا على أهليتهم . والمثقفون يريدون أن يلتقوا بمستقبل الحياة فى ظل الثورة فلا يجدون للثورة منهجا أو نظرية تبرر تلك الثقة . من مواقع القطيعة تلك كانت الثورة تتطور تحت الرقابة النقدية والمتطورة أيضا من جانب المثقفين إلى أن وجد الجميع أنفسهم ـ تبعا لمراحل تطور الثورة وتطورهم ـ فى مواقع واحدة أو متقاربة أو غير متناقضة واكتشفوا كم جنى القصور الفكرى فى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ على الثورة حين حرمها من إسهام المثقفين فى إكمال عنصرها الفكرى وكم جنى على المثقفين أنفسهم حين حال دون التحامهم بالثورة وإبداع نظريتها التى لم يكن ثمة مايحول دون أن تكون « ناصرية » .

فى عام ١٩٦٤ أرسل الشيوعيون إلى جمال عبد الناصر رسالة طويلة قالوا فيها : « إننا لاننكر إننا لفترة محدودة فيما بين عامى ١٩٥٣ و ١٩٥٥ قد وقفنا من الثورة موقف المعارضة . على أن هذا الموقف كان يعود فى الواقع إلى خطئنا فى فهم قيادة الثورة لا إلى ارتداد عن أهداف الثورة . ولهذا فإنه ماكادت الأحداث تكشف خطأ فهمنا حتى تغير موقفنا على الفور واعترفنا علنا بخطئنا .. » . وفى تلك الرسالة قالوا

عن « الميثاق » : « وإنا لنسمع فى هذا الميثاق صوت آمالنا ونبض حياتنا ، فإذا ماتكلم غيرنا عن قبوله أو تأييده فإننا نتكلم نحن عن تحقيق وإنجاز أهدافه » . وتبع ذلك أن أصدر الحزب الشيوعى المصرى فى ٢٥ أبريل ١٩٦٥ بيانا بحل نفسه تحت عنوان « حزب اشتراكى واحد تحت قيادة عبد الناصر » ..

والواقع إن عبد الناصر لم ينكر أبدا حق المثقفين ومسئوليتهم فى إكمال القصور الفكرى فى الثورة ، قال يوم ٢٥ نوفمبر ١٩٦١ (بعد صدور الميثاق) : « مانقدرش نقول إن احنا عملنا نظرية . ويا جمال اعمل لنا نظرية . انتم اللى عليكم تعملوا نظرية . المثقفين هم اللى عليهم يعملوا نظرية » . وهو قول يردد بدهية ، ففى الوطن العربى وفى غير الوطن العربى لايمتلك القدرة اللازمة للبناء الفكرى إلا المثقفون بل إنهم يتميزون بصفتهم هذه تمييزا لمقدرتهم تلك . على أى حال ، ففى ظروف تلك القطيعة بين الثورة والمثقفين كانت « الناصرية » كبناء فكرى مستحيلة .

مع غياب المنهج والنظرية انتهجت الثورة « التجربة والخطأ » أسلوبا للحركة . قال عبد الناصر وهو يقدم ميثاق العمل الوطنى إلى « المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية » يوم ٢١ أبريل مايو ١٩٦١ : « العشر سنوات اللى فاتت كانت فترة تجربة ، فترة ممارسة ، كانت فترة مشينا فيها بالتجربة والخطأ » . وقال يوم ٧ أبريل ١٩٦٣ ، خلال مباحثات الوحدة الثلاثية بين مصر وسوريا والعراق : « بالنسبة لنا .. تجربتنا قابلتنا أسئلة كثيرة بهذا الشكل كان لابد أن نوضحها فى أول يوم لم يكن عندنا منهج » .

جادل ، أو قد يجادل البعض بأن أسلوب « التجربة والخطأ » هو ذاته منهج علمى ويكادون يزعمون بأن « الناصرية » منهجا . وهو زعم يخلط بين « التجربة » و « التجريب » . التجربة هى إحدى الخطوات الأساسية فى أسلوب البحث العلمى . يبدأ البحث العلمى برصد وملاحظة حركة الظواهر والأشياء ثم استخلاص قانون تلك الحركة من اطرادها على قاعدة واحدة فى الظروف المتماثلة . هذا القانون المستخلص يبقى « فرضا نظريا » إلى أن تعتبر صحته وذلك عن طريق « التجربة » أى « إعادة » اختباره فى الظواهر أو الأشياء ذاتها فى الظروف ذاتها . فإن صدق صح وإن لم يصدق يصحح على ضوء ما أسفرت عنه « التجربة » ويعاد اختباره مصححا فى « تجربة » جديدة .. وهكذا إلى أن يصدق فيصبح قانونا أو « نظرية » بهذا تنتهى مرحلة البحث العلمى بما فيها « التجربة » . ونصبح على معرفة واثقة بقانون أو نظرية موثوقة نستخدمها لتحقيق ما نريد بدون حاجة إلى اختبارها فى تجربة جديدة . وعلى ضوء النظرية ، وليس التجربة ، نستطيع أن نخطط لصنع المستقبل وأن نتوقعه وأن نصنعه .

« هذه التجربة » لاترد إلا على الأشياء والظواهر القابلة للتكرار ، وهى الأشياء والظواهر المادية التى يحكمها قانون (المادة لاتفنى ولاتتجدد) بل تتحول . أما المجتمعات البشرية فلا تخضع « للتجربة » لأنها متطورة أبدا . والتطور الاجتماعى يعنى أن المجتمع يتغير وينمو عن طريق الإضافة خلال حركته عبر التاريخ وبالتالى فهو لايتكرر وليس قابلا للتكرار . من هنا يصبح مستحيلا إعادة المجتمع إلى « ماكان عليه » لنجرى عليه « تجربة » نختبر فيها صحة ماكنا قد استخلصناه من ملاحظة حركته فى مرحلة سابقة . لهذا حكم على « المنهج التاريخى » بأنه عقيم. ليس معنى هذا أن المجتمعات والظواهر الاجتماعية لاتخضع للبحث العلمى . هى تخضع . ولكن على مستوى مفرداتها (الإنسان) . فالإنسان ، مفرد المجتمع ، متكرر وقابل للتكرار . إذ نستخلص من ملاحظته قانون حركته نستطيع أن نعود إلى اختبار صحة القانون فيه ، أى نخضعه للتجربة . وعندما نكتشف قانونه نستخدمه بدون تجربة أخرى . ونستطيع أن نكتشف قوانين المجتمع والظواهر الاجتماعية من خلال معرفة التأثير المتبادل بين فعالية قانون الإنسان والقوانين التى تحكم المادة ، أى من خلال تفاعل قوانين ثبتت صحتها ولكن ليس من خلال إجراء « تجربة » على مجتمع .

كل هذا يدخل فى نطاق البحث العلمى .

أما « التجريب » فهو محاولة تحقيق مانريده بدون معرفة سابقة بقوانين الحركة وطرق استخدامها . إن مضمون مانريده يتحدد على ضوء احتياجاتنا كما عرفناها من خبرتنا فى « الماضى » . ولكنه لايتحقق ولايكون قابلا للتحقق إلا فى « المستقبل » . ولما كنا لانعرف على وجه الدقة العلمية « لغياب المنهج » كيف يمكن تحقيقه فى المستقبل فإننا « نجرب » أقرب الأساليب إلى أذهاننا ، فإذا لم تنجح المحاولة نقول إن ثمة خطأ فى الأسلوب الذى جربناه . أقرب إلى الصحة أن نقول إن ثمة خطأ فى معرفتنا الأسلوب المناسب . « فنجرب » أسلوبا آخرا .. وهكذا إلى أن يتحقق ما نريده أو يثبت لنا أنه غير قابل للتحقق أو نيأس فنغير مانريده . ومن المهم الانتباه إلى أن ما نريده قد يتحقق من خلال « التجربة والخطأ » . إن تحققه يعنى أن الأسلوب الذى جربناه كان صحيحا بمعنى أنه كان متفقا مع القوانين الموضوعية التى تضبط حركة الأشياء أو الظواهر التى تجرب فيها . ولكن لما كنا نجهل أصلا تلك القوانين ، وبالتالى لم نتعمد استخدامها ، فإن نجاح المحاولة يكون « صدفة » . وهنا يكمن الخطر فى الأسلوب التجريبى خاصة حين يستعمل فى حل المشكلات الاجتماعية . إذ كثيرا مايغرى « نجاح الصدفة » بالإصرار على أسلوب « التجريب » . وبالرغم من تكرار الفشل فإن مصادفات النجاح قد تصرف الانتباه عن الجهود التى أهدرت والوقت الذى ضاع خلال « التجريب » وما أصاب المسيرة من تعثر أو تردد أو ارتداد . وإذ يكون المجتمع هو مجال التجريب تصبح المخاطر أفدح لأن ضحايا الخطأ هنا هم البشر أنفسهم .

ومع ذلك فإن « التجريب » يكسب البشر خبرة بأساليب جربت ثم فشلت وبأساليب جربت ثم نجحت ويتوقف اتساع مساحة النجاح وتقلص هامش الفشل على المقدرة الذاتية على التعلم من الماضى وإثراء الخبرة الذاتية بمرجعات الفشل والنجاح عليها . ولقد كان عبد الناصر متمتعا بمقدرة فذة على الاستفادة من الأخطاء والتعلم من التجربة وإضافة مضامين فكرية وتطبيقية متنامية إلى حركة الثورة . لم يكن مجرد قناة تمر منها الأفكار والخبرات السابقة فى طريقها إلى التنفيذ . بل كان عنصرا مضافا إلى الأفكار والخبرات التى سبقته يتفاعل معها فيؤثر فيها ويتأثر بها . فلاتتجاوزه إلى ساحة التطبيق إلا وقد حملت أثرا من خلاصة خبرته . كانت تجارب الثورة بأخطائها تعلم قائدها فيتعلم ليعود قائد الثورة فيصحح أخطاء تجارب الثورة . وهكذا فى حركة جدلية لم تحفظ للثورة اتجاهها وتحصنها ضد الارتداد فحسب بل أغنتها فكرا فقومتها حركة . بدأت الثورة تجرب تحقق التحرر فى إطار العزلة الإقليمية ، فلما اكتشفت الخطأ متجسدا فى حلف بغداد بدأ عبد الناصر يدرك العلاقة الموضوعية بين تحرر الأمة (العربية) وتحرر جزء منها (مصر) ولم يرتد عن هذا أبدا . بدأت الثورة تعول فى بناء الجيش الوطنى الذى يحمى حرية مصر على السلاح يأتيها من الولايات المتحدة الأمريكية فلما اكتشفت الخطأ متجسدا فى التبعية كشروط لتوريد السلاح الأمريكى بدأ عبد الناصر يدرك العلاقة الموضوعية بين الولايات المتحدة الأمريكية والاستعمار الجديد ولم يرتد عن هذا أيضا . بدأت الثورة بإقامة التنمية على أسس رأسمالية فلما اكتشفت الخطأ متجسدا فى نكوص الرأسمالية عن المساهمة فى خطة التنمية بدأ عبد الناصر يدرك استحالة الرأسمالية بدون محركها الوحيد : الربح فلم يرتد عن هذا أبدا .. إلى آخره . هكذا أنضجت تجارب الثورة قائدها وأنضجها فاحتفظت باتجاهها التقدمى ثابتا بالرغم من كل العثرات والأخطاء .

والحصيلة غير منكورة أو غير قابلة للإنكار . إن الفرق بين مابدأت به الثورة عام ١٩٥٢ وما انتهت إليه عام ١٩٧٠ فرق نوعى كبير . إنه الفرق ـ على المستوى التحررى ـ بين اتفاقية « الجلاء » التى وقعت مع بريطانيا يوم ١٩ أكتوبر ١٩٥٤ والتى قبلت بها الثورة إبقاء القاعدة العسكرية البريطانية فى منطقة القناة تحت رعاية فنيين مدنيين لتعود إليها بريطانيا إذا ماحدث اعتداء على « مصر أو إحدى الدول العربية أو تركيا » وبين قيادة حركة عدم الانحياز والاشتراك فى رد العدوان الاستعمارى على حريات الشعوب فى كل مكان فى الأرض . الفرق بين الحماية والاستقلال . أنه الفرق ـ على المستوى القومى ـ بين المبادرة إلى إتاحة الفرصة لانفصال السودان (برنامج هيئة التحرير التى أنشئت يوم ١٦ يناير ١٩٥٣) من أجل أن تتحرر مصر وبين النضال من أجل الوحدة العربية الشاملة لضمان حرية مصر .

الفرق بين الإقليمية والقومية . إنه الفرق ـ على المستوى الاقتصادى ـ بين قانون الاستثمار رءوس الأموال الأجنبية (رقم ١٥٦ لسنة ١٩٥٣) الذى فتح أبواب مصر لسيطرة الاقتصاد الأجنبي وبين قوانين يوليو ١٩٦١ ـ التى فتحت أمام مصر طريق التحول الاشتراكى . الفرق بين الرأسمالية والاشتراكية . إنه الفرق ـ على المستوى السياسى ـ بين دعوة الأحزاب إلى « تطهير » نفسها من بعض قادتها (٣١ يوليو ١٩٥٢) وبين « طليعة الاشتراكيين » (١٩٦٣) حزبا قائدا لتحالف قوى الشعب العاملة . الفرق بين المثالية والواقعية . إنه الفرق ـ على المستوى الفكرى العام ـ بين الأهداف الستة (١٩٥٢) وبين « الميثاق » (١٩٦٢) وهو فرق هائل إلى درجة لايكاد يصدق معها القول بأنها ينتميان إلى ثورة واحدة ذات قيادة واحدة وأن الفاصل التجريبى بينهما عشر سنوات فقط .

تطورت إذن ثورة ١٩٥٢ من خلال تجريبها وتقدمت بالرغم من عثراتها طوال المرحلة التاريخية التى قادها جمال عبد الناصر . على مدى ذلك التطور . وتبعا لمضمون كل مرحلة منه . عملت مع عبد الناصر وتحت قيادته شخصيات وقوى عديدة . منها التحرريون حين بدا قائدا تحرريا . ومنها الوحدويون عندما بدا قائدا عربيا . ومنها الاشتراكيون عندما بدأ مرحلة التحول الاشتراكى . وكان كل من يعمل معه وتحت قيادته يستحق أن يسمى « ناصريا » إلا إذا كان متميزا بانتماء آخر ظاهر أو حتى لو كان ذا انتماء آخر غير ظاهر أو منكور . ولم تكن « الناصرية » تعنى أكثر من الالتزام بالحركة تحت قيادة عبد الناصر . أما فيما يتجاوز هذا الالتزام فقد كان لكل واحد مفاهيمه الخاصة . لم يكن كل التحرريين وحدويين ولم يكن كل الوحدويين اشتراكيين . ولم يكن كل الاشتراكيين قوميين . وما كان كل من عمل مع عبد الناصر وتحت قيادته من وزراء وقادة موظفين سواء فى فهمهم أو مواقفهم من الحرية أو الوحدة أو الاشتراكية . وسيثبت التاريخ . بعد وفاة عبد الناصر . أن بعضا منهم لم يكونوا تحرريين أو وحدويين أو اشتراكيين بأى معنى . بل إن منهم من كان ـ فى حياة عبد الناصر نفسه ـ عدوا متآمرا خفية ضد الحرية والوحدة والاشتراكية . ومع ذلك فقد كانوا كلهم « ناصريين » حيث « الناصرية » هى علاقة التزام حركة الجند أوامر القائد .

كما انقضت بوفاة عبد الناصر دلالة « الناصرية » على الانتماء إليه . ودلالة « الناصرية » على الانتقاء ومواقفه . انقضت أيضا بدلالتها على الحركة تحت قيادته . فقد غاب القائد وسيظل غائبا أبدا . ولم يعد منذ وفاته يقود حركة أحد . فلاتنسب حركة أحد إلى « الناصرية » ولاتنسب « الناصرية » إلى حركة أحد . فإن تلك « ناصرية » مستحيلة .

إذن ..

فلا يكفي ، ليستحق أى شخص الانتساب إلى الناصرية ، وأن يكون ناصريا ، أن يكون مصدر ذلك « النسب » علاقة انتماء أو علاقة ولاء أو علاقة رجاء أو علاقة لقاء مع عبد الناصر .. نقول لاتكفى لأن الشخص المنتمى إليه قد مات ، ولكنها ـ على سبيل القطع ـ لاتنتقص من ناصرية من يكون مصدر نسبته إلى الناصرية موقفا محدد المنطلقات والغايات والأساليب من مستقبل الأحياء .

(٣)
عـن الـنـاصـريـة ...



الميثاق :

بعد أن صدر « ميثاق العمل الوطنى » فى يونيو ١٩٦٢ قيل إنه ينطوى على « نظرية » متكاملة ، وكان على رأس القائلين جماعة من المثقفين الذين أسموا أنفسهم حينئذ « الميثاقيون » . ولقد كذب عبد الناصر تلك الشائعة قبل أن تروج . قال وهو يقدم « الميثاق » إلى المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية » : « ... إن الميثاق للجيل .. وأنا كنت حريصا على ألا أحدد حاجة فيه أكثر من ٨ سنين . يمكن حددت سنة ١٩٧٠ أو ١٩٧١ لأنه جايز ييجى بعد كده ناس عندهم تطور فكرى تقدمى أكثر من الميثاق أو يحبوا يضيفوا عليه حاجات أو يعدلوه .

ولقد كان عبد الناصر يتوقع أن جيلا جديدا سيأتى بعده قد لايتوقف ، فكرا وحركة ، عند الميثاق وتجارب مرحلته . فنراه ، بعد خمس سنوات تقريبا من صدور الميثاق ، يتحدث عن هذا الجيل مركزا بشكل أساسى على ضرورة امتناع جيله ـ جيل عبد الناصر ـ عن فرض وصايته على الجيل المنتظر . وصاية فكرية أو وصاية حركية ، قال يوم ٢٠ يناير ١٩٦٥ أمام مجلس الأمة : « إن المهمة الأساسية التى يجب أن نضعها نصب عيوننا فى المرحلة القادمة هى أن نمهد الطريق لجيل جديد يقود الثورة فى جميع مجالاتها السياسية والاقتصادية والفكرية . ولسنا نستطيع أن نقول إن جيلنا قد أدى واجبه إلا إذا كنا نستطيع ، قبل كل منجزاته وبعدها ، أن نطمئن إلى استمرار التقدم . وإلا فإن كل ماصنعناه مهدد بأن يتحول ـ مهما كانت روعته ـ إلى فورة ومضت ثم توقفت . إن الأمل الحقيقى هو فى استمرار النضال ويتأكد الاستمرار حين يكون هناك فى كل وقت جيل جديد على أتم الاستعداد للقيادة ولحمل الأمانة ومواصلة التقدم بها . أكثر وعيا من جيل سبق . أكثر صلابة من جيل سبق . أكثر طموحا من جيل سبق . وينبغى أن ندرك أن التمهيد لهذا الجيل واجبنا وإننا نستطيع بالتعالى والجمود أن نصده ونعقده وبالتالى نعرقل تقدمه وتقدم أمتنا . إن علينا بالصبر أن نستكشفه دون مَنٍّ عليه أو وصاية . وعلينا بالفهم أن نقدم إليه تجاربنا دون أن نقمع حقه فى تجربة ذاتية وعلينا فى رضا أن نفسح الطريق له دون أنانية تتصور غرورا أنها قادرة على شد وثائق المستقبل بأغلال الحاضر وعلينا أن نتيح له بفكره الحر أن يستكشف عصره دون أن نفرض عليه قسرا أن ينظر إلى عالمه بعيون الماضى » .

إن هذه الوصية لاتكتفى برفع يد الوصاية عن « عندهم تطور فكرى تقدمى أكثر من الميثاق » ، بل هى نداء إلى الجيل الجديد ـ الذى أصبح جيل اليوم ـ بأن الميثاق للجيل الذى سبقه وإن عليه أن يقود الثورة فى جميع مجالاتها السياسية والاقتصادية والفكرية . وقد تحولت الوصية إلى تحريض أثناء التقاء جمال عبد الناصر بأعضاء المكاتب التنفيذية للاتحاد الاشتراكى العربى فى محافظتى القاهرة والجيزة فى العام التالى (١٩٦٦) .. قال : « إن الاجتهاد فى الفكر الاشتراكى محبب .. ولو لم يكن على كثير .. لاستطعت الاجتهاد أكثر . ولكن قد تكون لديكم كتفرغين الفرصة للاجتهاد » .

رغم كل هذا فإن عبد الناصر كان قد قال فى عام ١٩٦٣ إن الميثاق يتضمن نظرية . وهو قول يستحق الانتباه خاصة إذا تذكرنا أنه قال قبل ذلك بعامين (١٩٦١) : « مانقدرش نقول إن احنا عملنا نظرية » . قال متحديا قادة حزب البعث العربى الاشتراكى خلال مباحثات الوحدة الثلاثية بين مصر وسوريا والعراق : « .. أين هى نظرية حزب البعث .. احنا عندنا تجربة طلعنا منها بنظرية .. وطلعنا منها بوسيلة للتطبيق . عندنا الميثاق .. احنا كان عندنا الشجاعة فى أول الثورة لنقول إن مافيش نظرية . فيه مبادىء محددة . مشينا فى التجربة والخطأ وبقينا نقول إن احنا بنغلط ٤٠ ٪ وبنغلط ٥٠ ٪ وبقينا نقول ماعندناش نظرية . وبعد كده قدرنا نعمل .. قدرنا نعمل تطبيق .. وبعدين عندنا تجربة تطبيق ١١ سنة مستمرة ادت أساس للنظرية .. بالنسبة للاشتراكية وبالنسبة للوحدة كل شىء مبين فى الميثاق » . (جلسة مساء يوم ٦ أبريل ١٩٦٣) .

هذا القول صحيح فى نصه وفى دلالته . فقد فرق عبد الناصر بين مرحلة التجربة والخطأ (الممارسة) ومرحلة الميثاق . وهى تفرقة صحيحة . فلاشك فى أن الميثاق أكثر تقدما على المستوى الفكرى من الأفكار المرحلية المختلطة بالتجربة والخطأ ، أكثر تقدما بكثير . وماعناه عبد الناصر فى بداية الحديث من أنه قد خرج من التجربة بنظرية عاد فحدده فى نهاية الحديث بأن ماأسفرت عنه التجربة وتضمنه الميثاق هو أساس للنظرية . وهو صحيح فلاشك فى أن الميثاق قد تضمن معطيات فكرية مبدئية تصلح أساسا لنظرية متكاملة . ولاينقص الأساس إلا البناء عليه .

رأى مبكـــر ..

وقد كان لنا فى هذا رأى مبكر . ففى مايو ١٩٦٧ كانت قد انقضت خمس سنوات على صدور الميثاق ووضعه موضع الاختبار فى الممارسة . فذهبت بعض الصحف تسأل بعض الناس رأيهم فى الميثاق والقضايا التى آثارها . ولسنا نريد الإشارة إلى الكلمات

المصفقة التى قيلت حينئذ .. ومع ذلك استطعنا أن نقول رأيا نشر فى مجلة غير متخصصة لا للفكر ولا للسياسة هى مجلة « الإذاعة والتلفزيون » ها نحن نعود إليه . قلنا : « أعتقد أنه قبل طرح قضايا الميثاق للمناقشة ينبغى أن نطرح للمناقشة قضية الميثاق ذاته . إذ أن معرفة أبعاد هذه القضية ، التى تتصل بالميثاق ككل ، مقدمة ضرورية لفهم القضايا التفصيلية المتعلقة بالميثاق . والميثاق ككل يمكن النظر إليه من زاويتين : « الزواية الأولى : تكون بالنظر إليه على أساس أنه دليل عمل يتضمن قواعد ملزمة فى النشاط الاجتماعى والاقتصادى والسياسى لكل أعضاء الاتحاد الاشتراكى العربى . ومعنى هذا أن مناقشته تدخل فى نطاق النقد والنقد الذاتى . ولكنها لايجوز أن تكون سبيلا للتهرب من الالتزام به سواء اتفق حكمه مع رأى أحد الأعضاء أم لم يتفق .. كان مناسبا لمقتضيات مرحلية أم لم يكن .. نريد أن نقول إن الميثاق كدليل عمل ملزم لكل المستويات إلى أن يصيبه التعديل بذات الطريقة الشعبية التى صدر بها ، والخروج عن الميثاق لأى سبب كان انحرافا .

الزاوية الثانية : هى النظر إلى الميثاق باعتباره يمثل مرحلة تاريخية .. والميثاق بهذه الصفة لن يكون مقصورا على النص الذى أعلن عام ١٩٦٢ بل يشمل النص وتفسيراته وحصيلة الممارسة فى ظله حتى الآن ، والميثاق على هذا الوجه يجسد مرحلة انتقالية أكثر تقدمية من المرحلة التى سبقتها ولكنها ، بالضرورة ، تمهد لمرحلة أكثر تقدمية منه . بمعنى أنه لابد أن تكون النظرة إلى الميثاق على هذا الوجه قائمة على التسليم بأن المستقبل سيتخطاه ، وأن النظر فيه يكون على ضوء متطلبات ذلك المستقبل كما نعرفها من تجربة الميثاق ذاته .. إن الميثاق كدليل عمل وممارسة يكون قد نجح بقدر مايسمح للمستقبل بأن يتخطاه فكرا وممارسة . أما تصور أن الميثاق غير قابل للتغير أو التجاوز فهو فى الواقع حكم على الميثاق بأنه لم يؤد مهمته كدليل عمل غايته تطوير الممكن إلى مايجب أن يكون .

على ضوء هذه النظرة الأخيرة نلاحظ أن الميثاق قد عكس كل خصائص المراحل الانتقالية حيث توجد معا كثير من الأفكار والظواهر لمجرد أنها لم تتحدد وتتضح بعد .. وبالتالى لم تفرز .. فمثلا الميثاق دليل عمل وبالتالى فهو وثيقة تحدد استراتيجية العمل السياسى فى مرحلة معينة والمفروض أن يكون الميثاق مستندا إلى نظرية سابقة عليه وأن يكون مقدما إلى تنظيم اشتراكى مدرب على العمل السياسى والاشتراكى التطبيقى . ولو كان هذا متوفرا لما احتاج الميثاق إلى أن يتضمن بعض المقولات النظرية وبعض القواعد التطبيقية . غير أن طبيعة المرحلة الانتقالية التى يجسدها الميثاق حتمت أن تضاف إلى طبيعته الاستراتيجية بعض المقولات النظرية لأنه بدأ فى قلب مرحلة لم تكن لنا فيها نظرية ، وأن يتضمن كذلك بعض التفصيلات التطبيقية لأنه صدر ولم يكن لدينا تنظيم سياسى مدرب على مواجهة التطبيق والقدرة على

تنويع التكتيك المناسب لكل موقف . وهكذا جاء الميثاق وفيه مايمكن أن يبرر القول بأنه يتضمن نظرية وفيه مايمكن أن يبرر القول بأنه يتضمن خططا تطبيقية إلى جانب أنه دليل عمل استراتيجي .

كذلك نرى الطابع الانتقالى الذى يتم بعدم التحديد فى البعد الاجتماعى للميثاق ، فالميثاق صدر فى ظل نكسة الانفصال المرحلية ، ولكنه ، أيضا ، فى ظل مرحلة تقدم ثورى عربى . وانعكس هذا فى الميثاق فجاء وفيه مايبرر أنه دليل عمل إقليمى وفيه مايبرر أنه قابل للانتقال إلى الساحة القومية .

هذا الازدواج فى المفاهيم ، والمدى الذى انعكس فى الميثاق من طبيعة المرحلة التى يمثلها ، أشاع كثيرا من الغموض فى فهم الميثاق نفسه . أهم مظاهر هذا الغموض هو أن طبيعته الملزمة كدليل عمل امتدت إلى المنطلقات الفكرية المحضة التى تضمنها التطبيقات التفصيلية التى جاءت فيه . وأصبح من الشائع مواجهة أى اجتهاد فكرى بأحكام من الميثاق والحيلولة دون مواجهة الواقع التطبيقى بأحكام من الميثاق . ومن ناحية أخرى ، نظرا للطبيعة غير المحددة للموضوعات الفكرية ، امتد عدم التحديد هذا من المنطلقات الفكرية التى احتواها الميثاق إلى القواعد الملزمة فيه . وليس قليلا من يحاولون الإفلات من القواعد الملزمة عن طريق تأويل المقولات الفكرية التى جاءت فى الميثاق على وجه يوجه الالتزام بالقواعد الملزمة فى الميثاق وجهات فكرية خاصة .

هذه فى رأيى هى القضية الأساسية بالنسبة « للميثاق » . بمعنى أنه يجب أن تبدأ فورا جهود منظمة لدراسة علمية جادة لفرز الميثاق كوثيقة وتراث تمهيدا لانتهاء المرحلة الانتقالية . وفى رأيى يجب أن تفرز الحصيلة كلها بحيث تخرج من الميثاق كل المقولات والمنطلقات الفكرية والعقائدية لتصاغ معا كنظرية أو مشروع نظرية .. يعمق بدراسات متتالية بعيدا عن الالتزام الحركى . أى فى ظل جو اجتهادى لاتخشى المحاورة فيه ولاتتهم بأنها خروج أو مخالفة للميثاق . ومن ناحية أخرى يخرج من الميثاق كل ماله طبيعة تطبيقية أو تكتيكية . فبعد أن وجد الكادر السياسى والاتحاد الاشتراكى يجب أن نمنح الجماهير المنظمة فيها المرونة والثقة الكافيين لتحميلها مسئولية « التطبيق » ثم يبقى الميثاق كدليل عمل يمثل الخط الاستراتيجى لمدة أخرى طويلة نسبيا .

وهنا لابد أن يحسم الميثاق الموقف ذا الطبيعة الانتقالية الذى يمثله بالنسبة إلى البعد القومى . فإما أن يكون دليل عمل إقليمى محض وصريح وهو مايحتم أن تكون طبيعته قابلة لأن تكمل بميثاق قومى لاتتناقض معه ولاتعوقه . وأما أن يأخذ بعده القومى كاملا .. بحيث يكون دليلا لكل القوى العربية فى الجمهورية العربية المتحدة

وباقى أجزاء الوطن العربى ، يحقق بينها الوحدة على المستوى الاستراتيجى ويرسم كل منها سياسته التكتيكية طبقا له بدلا من الاقتباس الناقص أو المعدل السائد الآن الذى يبقى على الموقف متأرجحا ، فلايمكن القول بأن لنا ميثاقا قوميا ولايمكن القول بأنه إقليمى وأعتقد أن هذا هو الإطار الشامل الذى يجب أن تدور فى ظله الدراسات الجزئية للقضايا التى طرحها الميثاق بقصد تحقيق خطوة تستفيد من تجربة الميثاق كوثيقة وممارسة (العدد الصادر يوم ٢٠ مايو ١٩٦٧) .

لست ألوم أحدا على أنه لم يسمح ولم يع فلم يفعل . إذ لم يكد يمر أسبوعان على هذا الحديث حتى وقعت الطامة الكبرى وأوقعت المؤسسة الصهيونية المسماة « إسرائيل » بتأييد فعلى من الولايات المتحدة الأمريكية ، هزيمة منكرة بالأمة العربية وإن كانت الضربة الصهيونية ـ الأمريكية قد أصابت الأمة العربية فى بعض أقطارها وفى رأسها مصر (٥ يونيه ١٩٦٧) . فأضيفت إلى تجارب الممارسة فى ظل الميثاق تجربة هزيمة الدولة التى أصدرته فكرا وصاغته دستوريا ومؤسسات شعبية . وتوالت التجارب المرة والتجارب السائغة إلى أن توفى صاحب الميثاق فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ . وقبل أن ينقضى عام على وفاته حدثت تجربة أخرى ذات دلالة ثقيلة فى ميزان تقييم الميثاق فكريا والميثاق ممارسة ، ففى ١٥ مايو ١٩٧١ انقلبت الأقلية فى اللجنة التنفيذية العليا على الأغلبية ثم لم تلبث الأوامر أن صدرت « بفض » تحالف قوى الشعب العاملة فانفض بدون أن يحرك أحد ـ الأقلية غير مؤثرة ـ أصبعا يدل على أن الأفكار التى جاءت فى الميثاق كانت قد أصبحت عقيدته التى تستأهل التضحية أو حتى دليل عمله الذى يرشد إلى الطريق فى المحنة .

و ـ رأى معاصـــر ..

لم يكن هذا يعنى ، ولايعنى حتى الآن ، أنه ليس فى الميثاق ما يصلح لالتقاء الناصريين عليه والاحتكام إليه عند الخلاف . بالعكس . فإن المبادئ الأساسية التى تضمنها الميثاق مازالت كافية لهذا الالتقاء بل إنها ـ عندنا ـ أكثر من كافية كبداية فى هذه المرحلة من تاريخ الناصريين . أما إنها كافية فلأنها لم تجرب أبدا فى التطبيق منذ أن صدر الميثاق وحتى وفاة عبد الناصر . ولقد أوضحنا بالتفصيل كيف أن الميثاق لم ينفذ فى أهم ماجاء به من مبادئ رما أستحدثه من نظم (الأحزاب ومشكلة الديمقراطية فى مصر ـ ١٩٧٧) وبالتالى فإن مهمة تطبيق الميثاق ماتزال تنتظر من يؤديها وهى مسئولية الناصريين . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى إن الميثاق هو الوثيقة الفكرية التى لايستطيع أحد أن يشكك فى نسبتها إلى عبد الناصر . وبالتالى فهو ـ بالقطع ـ يصلح كبداية على الأقل لالتقاء كل الناصريين بدون أن يحول بينهم

وبين تنميته وتطويره على هدى المرحلة التاريخية التى انقضت منذ صدوره . ولقد استمع إلىّ كثيرون من شباب الناصريين وأنا أردد هذا الرأى تحريضا لهم على ألا يبددوا الوقت والجهد فى صياغات واجتهادات تثير الخلاف قبل أن يملكوا ما يختلفون داخله ويختلفون إليه ليحكم فيما بينهم . ولكن كل من له إلمام ولو بسيط بألغاز النفوس يعلم أن اصطناع معارك فكرية بدون مبرر واقعى ، هى اصطناع مبرر للهروب من معارك الواقع . ولقد زدنا ونزيد أن الميثاق أكثر من كاف كبداية يلتحم فيها الناصريون حزبا . ذلك لأن الردة قد عادت بالواقع العربى إلى مرحلة التحرر القومى ، أى إلى معارك ماقبل ١٩٥٢ ، حيث يكفى التحام القوى على هدف التحرر ، ويبقى فى الميثاق فائض من الأهداف (الاشتراكية والوحدة) التى تعتبر استراتيجية بالنسبة للواقع الملح بمعنى أن الخلاف الفكرى حولها الآن عبث ، أما اشتراط تصفية هذا الخلاف قبل الالتحام فى قوة تحررية فهو هروب صريح .

ومع ذلك فإذا كان ثمة من لايرضيهم إلا جواب صريح عن ماهية الناصرية ، فما تزال التجارب الحية تتوالى حتى الآن لتضع تحت تصرفهم الجواب الصحيح على السؤال : ماهى « الناصرية » ؟ .. مصادر المعرفة أكثر مما تضمنه الميثاق . وسيكون غباء مطبقا ، لايفيد صاحبه شيئا ، أن تكون البداية من « الميثاق » ثم قفزا إلى المستقبل كأن لم يحدث شىء بعد الميثاق . أو كأن الميثاق فكرا لايتحمل نصيبه من المسئولية عما وقع بعده من أول هزيمة ١٩٦٧ حتى انتصار الردة ، حتى العجز عن توحيد الناصريين فى قوة قادرة على قيادة ملايين البشر الذين عرفوا عبد الناصر من خلال ماحقق لهم عهده من منجزات تقدمية حية . على أى حال يبقى حل المشكلة الأساسية أمام الذين يبحثون عن الجواب الصحيح على السؤال : ماهى الناصرية ؟ . متوقفا على معرفة كيف يستفيدون من مصادر المعرفة الغنية التى تقدمها إليهم مرحلة تاريخية طويلة كانت بقيادة عبد الناصر وما بعدها . إنهم إذ يحسنون الاستفادة منها قد يصلون إلى صيغة ، ولو أولية « لناصرية » المستقبل .

كيف الناصرية ..

ليس أسهل من انتقاء الأفكار إلا صياغتها . ولو انتقى كل من يشاء مايريد من أفكار عبد الناصر أو من مصادر المعرفة التى تقدمها التجارب التاريخية وصاغها « ناصرية » لكان عليه أن يعد نفسه للإجابة على سؤال سيطرح عليه حتما : كيف عرف أن مايقول عنه إنه « الناصرية » هو « الناصرية » حقا ؟ .. إنه سؤال تقليدى يفرض ذاته على كل الذين ينشئون الأفكار والنظريات . إن هذا يعنى ، فى رأينا . إن أية محاولة لبناء فكرى يسمى « ناصرية » لابد له من أن يكون مستندا إلى منهج علمى

فى فهم التاريخ الماضى وتوقع مسيرته التلقائية إلى المستقبل حتى يمكن تحديد مضمون التناقض بين ماهو كائن وبين مايجب أن يكون ثم صياغة حل لهذا التناقض يتضمن رؤية فكرية محددة للمستقبل منطلقا وغاية وأسلوبا . حينئذ يصح لمن يريد أن يسمى هذه الرؤية « ناصرية » فيقال لأنها ستكون حصيلة تجربة تاريخية بدأت بثورة قادها عبد الناصر ونمت فكريا وممارسة تحت قيادة عبد الناصر . وقد يقال لأن عبد الناصر كان ذا اتجاه تقدمى ثابت انقطع فجأة بوفاته المفاجئة فهى أى « الناصرية » ماكان سيصل إليه المجتمع العربى تحت قيادة عبد الناصر لو امتدت الحياة بالقائد . ويمكن أن يقال لأن أبطال الردة قد فرضوا عنوان نقيضها . فحين نكصوا راجعين رفعوا رايات « ضد عبد الناصر والناصرية » فكان محتوما على الذين يختارون مواجهتهم وإيقاف ردتهم أن يرفعوا رايات « مع عبد الناصر والناصرية » . وقد يقال غير هذا وقد يكون هذا أو ذاك محل خلاف مرجعه إلى أن عبد الناصر قد قدم التجربة الغنية فكرا ، التقدمية ممارسة ولكنه لم يصغ تجربته نظرية حتى نأخذ ألفاظها من اسمه . فنقول إن الأمر كله لايستحق الخلاف إلا عند الذين بينهم وبين عبد الناصر الشخص قضية عداء أو قضية ولاء . الذين يريدون أن يمحوا اسمه من ذاكرة الشعب أو الذين يريدون أن يخلدوا اسمه فى تاريخ الشعب . وكل هذه قضايا ذاتية لاتستحق التوقف عندها . فلتكن إذن « ناصرية » ولو تعبيرا عن حقيقة أن أسسها الأولى قد جاءت فى « الميثاق » الذى صاغه عبد الناصر وأن اتجاهها هو ذات اتجاه مرحلة عبد الناصر ، وأن عبد الناصر الذى كان بطلا قوميا فى حياته يستحق أن يبقى رمزا للحركة القومية بعد مماته . والعبرة ـ فى النهاية ـ بالوصول إلى رؤية فكرية محددة لمجتمع المستقبل الذى كان يطمح إليه عبد الناصر بعد أن يزداد تحديدا ليتفق مع مجتمع المستقبل الذى يطمح إليه الشعب العربى .

نستعمل منهجنا فنقول أولا ما قال لينين من قبل : « من الواقع إلى الفكر إلى الواقع هذا هو الجدل » . وحتى لاتبقى حركة الجدل ثابتة فى موقعها من الزمان صاعدة هابطة كما تفعل أقدام الجند وهى تسير فى محلها لاتتقدم . نضعها فى تيار الزمان الذى لايتوقف لتصبح من الماضى إلى الفكر إلى المستقبل وهذا هو الجدل . جدل الإنسان وقانون حركته وحركة المجتمعات . هذا المنهج بكامل قوانينه التى طرحناها فى دراسات أخرى ، هو الذى سنلتزمه فى الوصول إلى معرفة الجواب الصحيح على السؤال : ماهى « الناصرية » ؟ .. إن كان المنهج صحيحا فسيكون الجواب صحيحا بقدر ماتصح معرفتنا بوقائع الماضى . وإذا لم يكن صحيحا فلن يكون الجواب صحيحا لو صحت معرفتنا بالماضى ووقائعه . ولما كنا لانملك غيره فإنه ـ عندنا ـ البديل الوحيد عن انتقاء الأفكار التى تعجبنا من بين ماخلف عبد الناصر لندخل بها فى زحام « الناصريات » المختارة .

ولكن ماهى تلك الوقائع الماضية التى تتوقف على صحة معرفتها صحة مانتنتهى إليه من جواب ؟ هنا تكمن الصعوبة الكبرى إذ أن الوقائع لاحصر لها . وقليلة قليلة هى التجارب التاريخية التى تقارب تجربة عبد الناصر طولا وعرضا وعمقا وارتفاعا وحركة ثورية عارمة . الانتقاء إذن وارد . وهو وارد حتما فيما نقول . وقد انتقى من قبلنا كتاب ومؤلفون ماكاد يقنع القارئين بأن لولا أدوار قاموا بها أو انتحلوها ماكانت الثورة وماكان عبد الناصر . ومنهم من انتقى من خزانة تراث عبد الناصر المعاصرة ماكاد يقنع به نفسه أنه لوكان عبد الناصر قد استمع إليه وأخذ برأيه لتغير وجه التاريخ . تاريخ الثورة وتاريخ عبد الناصر . كلا لن ننتقى من وقائع التجربة إلا تلك الوقائع التى انقضت بانقضاء مرحلتها وظروفها غير القابلة للتكرار فى المستقبل الذى يريد أن نتقدم إليه من الماضى .

وإن أول مانستبعد هو « البطل » جمال عبد الناصر .

لماذا نستبعد « البطل » أول مانستبعد .

لأن البطل لايتكرر ولايصطنع . وقد كان عبد الناصر بطلا بالمفهوم العلمى للكلمة . فما أن مات حتى اجتاحت الأجواء العربية رغبات ومحاولات تكراره أو اصطناعه عن طريق « خلافته » . بل إن وفاة البطل لم تكن عند البعض إلا إزالة من حجب عنهم البطولة التى استحقوها معه أو استحقوها قبله . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن الجيل الجديد من الشباب لم يخل ممن استهوته البطولة فى شخص عبد الناصر فأصبح « ناصريا » ولاشىء أكثر من هذا . وقد نرى نماذج كثيرة من الشباب يدخرون أنفسهم لملء مكان البطل الناصرى القادم ، ويتطلبون من غيرهم أن ينتظروا مايدخرون . باختصار إن وفاة البطل عبد الناصر قد تركت فى كثيرين من الشيوخ والكهول والشباب آثار عبادة البطولة أو انتظار عودتها فهم ناصريون لا انتسابا إلى البطل عبد الناصر ، بل انتسابا إلى بطل كان اسمه عبد الناصر .

وما كان كل هذا ليضير غير أصحابه ، لولا حقيقة اختلاف دلالة الفكر أو الفعل يصدر من بطل عن دلالته لو أسند إلى إنسان عادى . وقد نرى فيما بعد نماذج من الأفكار والأفعال ثابتة النسبة إلى عبد الناصر القائد البطل ولكنها لايمكن أن تكون دائمة النسبة إلى الناصرية لتكون ملزمة فكرا وفعلا لكل من ينتمى إليها .

بعدا للأبطــال ..

فى كتاب « فلسفة الثورة » الذى نشر بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ نص يقول فيه عبد الناصر « إن ظروف التاريخ مليئة بالأبطال الذين صنعوا لأنفسهم أدوار بطولة مجيدة فقاموا بها فى ظروف حاسمة على مسرحه وإن ظروف التاريخ أيضا مليئة بأدوار البطولة المجيدة التى لم تجد بعد الأبطال الذين يقومون بها على مسرحه ، ولست أدرى لماذا يخيل إلىّ أن فى هذه المنطقة التى نعيش فيها دورا هائما على وجهه يبحث عن البطل الذى يقوم به ، ثم لست أدرى لماذا يخيل إلىّ أن هذا الدور الذى أرهقه التجوال فى المنطقة الواسعة الممتدة فى كل مكان حولنا ، قد استقر به المطاف متعبا منهوك القوى على حدود بلادنا يشير إلينا أن نتحرك ، وأن ننهض بالدور ونرتدى ملابسه فإن أحدا غيرنا لايستطيع القيام به ، وأبادر هنا فأقول إن الدور ليس دور زعامة . إنما هو دور تفاعل وتجارب مع كل هذه العوامل ، يكون من شأنه تفجير الطاقة الهائلة الكامنة فى كل اتجاه من الاتجاهات المحيطة بها ، ويكون من شأنه تجربة لخلق قوة كبيرة فى هذه المنطقة ترفع من شأن نفسها وتسهم بدور إيجابى فى بناء مستقبل البشر » .

لقد تحدث عبد الناصر وكتب كثيرا بعد « فلسفة الثورة » ولكنه لم يستعمل قط مثل هذه الصيغة « الرومانسية » فى التعبير عن أفكاره . ومع ذلك فإن أحدا لم يكن يستطيع فى ذلك الوقت ، ولابعده ، وإلى أن مات عبد الناصر ، أن ينسب إليه أفكارا غير أفكاره . نتجاوز ، إذن ، عن الصيغة الحالية لنصل إلى الفكرة اليقظة . فنعرف منها أن عبد الناصر كان يدرك ، منذ وقت مبكر ، الفرق بين « الزعامة » و « البطولة » وأن البطولة دور يتحدد بفعل معطيات موضوعية تاريخية تسبق « البطل » وجوداً وتستدعيه وأن تلك المعطيات الموضوعية كانت متحققة فى الواقع التاريخى الذى سبق الثورة وبالتالى كان دور البطولة قد وجد ولم يبق إلا من يقوم به ، وإن عبد الناصر كان يعتقد أنه قادر على القيام بذلك الدور .

فترد ثلاثة أسئلة ، الأول : عن مدى صحة فكرة عبد الناصر عن دور البطولة ، الثانى : عن مدى وفاء عبد الناصر بهذا الدور . الثالث : عن مدى تأثير كل هذا فى دلالة « الناصرية » .

أما عن السؤال الأول فإن ظاهرة « البطل » الفرد الذى يقوم بدور قيادى حاسم فى حركة التطور فى مجتمع معين ظاهرة متكررة فى تاريخ الشعوب كافة . فى هذه

الظاهرة يقوم « فرد بالذات » بدفع حركة التطور إلى مواقع متقدمة كانت الجماهير ، بالرغم من كثرتها ، عاجزة بدونه عن الوصول إليها . فى هذا يفترق البطل عن الزعيم ، إذ قصارى دور الزعيم أن تتوحد الجماهير تحت قيادته ولكنه لاينجز بها أكثر مما تستطيعه الجماهير نفسها . فى الزعامة يقوم الزعيم بتجميع القوى المتاحة . أما فى البطولة فإن البطل يقدم من ذاته إضافة من ذاته إلى القوى المتاحة ما يعوض عجزها ولو كانت مجتمعة . ونعنى بالقوى المتاحة فى الحالتين المقدرة الذاتية (البشرية) ولانعنى بها الممكن موضوعيا . فلا الزعيم ولا البطل يستطيع أن يفعل المستحيل إنما يرتفع الزعيم بكفاءة أداء المقدرة الذاتية ، فى حدود الممكن موضوعيا ، بقدر ما يتحقق من تكامل الجهود الموحدة . ويقوم البطل بإكمال كفاءة أداء المقدرة الذاتية بمايقدمه من ذاته ولكنه لايتجاوز ولايمكن أن يتجاوز الممكن موضوعيا . كل مافى الأمر إن « الذات » فى البطولة تلعب دورا حاسما فى الكشف عن حقيقة أن الممكن موضوعيا كان ممكنا دائما بالرغم مما كان مستقرا فى وعى الجماهير من أنه كان مستحيلا .

ولقد نعرف من الأدب الماركسى التقليدى أن قوانين التطور (المادية الجدلية) لاتسمح للذات التى تعكس الواقع المادى بأن تسبق الواقع تطوّرا فتطوره وتخلق واقعا جديدا . لاتسمح بأن يكون الحل الجدلى للتناقضات الكلية فى المجتمع طفرة « ذاتية » يقوم بها فرد قائد للحياة الاجتماعية إلى طفرة « نوعية » . ولكن تواتر ظاهرة « البطل » فى تاريخ الشعوب لم يسمح للماركسيين بإنكارها . ففسر المحدثون منهم ظاهرة البطولة تفسيرا صحيحا فى مجمله كما يفعلون دائما كلما اعترفوا للإنسان بقيادة حركة التطور عن طريق استخدامه الواعى لقوانين الموضوعية .

فمنذ وقت مبكر قال انجلز فى رسالته إلى ماركس : « لأن يبرز هذا الرجل أو ذاك بالذات فى زمان معين فى بلد معين هو - طبعا - مسألة حظ . ولكن إذا استبعد فستبقى الحاجة إلى بديل عنه قائمة ، وسيوجد هذا البديل بشكل أو بآخر ، ولكنه لابد أن يوجد فى المدى الطويلة . لقد كان من حظ نابليون ذلك الكورسيكى أن يكون هو بالذات الديكتاتور العسكرى الذى استلزمت ظهورة الجمهورية الفرنسية المرهقة بحروبها الخاصة ، ولكن لوكان نابليون مفتقدا لحل شخص آخر محله . يؤكد هذا حقيقة أن « الرجل » كان يوجد دائما حيث يكون وجوده ضروريا : قيصر وأغسطس وكروموبل إلخ » . يشير مؤلفو « أسس الماركسية اللينينية » إلى هذه الرسالة ثم يقولون : « يوجد فى المجتمع دائما أشخاص ممتازون وموهبون . ولكن هؤلاء لايبرزون إلى المقدمة إلا إذا ظهرت الحاجة الاجتماعية إلى أشخاص يمتلكون مقدرات خاصة ومواهب عقلية وخلقية خاصة فخلقت الشروط الضرورية لبروزهم . يلاحظ هذا بشكل خاص ولافت فى زمان الثورات حيث يتصدى للنشاط العام تصديا مباشرا مئات وألوف من الأشخاص الذين كانوا قبل الثورة مجهولين والذين لم يكونوا يجدون

فرصة أعمال مواهبهم ومقدراتهم فى ظل النظام القديم . على النحو ذاته تخلق الحاجة الاجتماعية فى زمن الحرب الظروف اللازمة لتقدم الأشخاص ذوى الكفاءات القيادية . أما من هو الشخص الذى يبرز إلى المقدمة فى ظل ظروف اجتماعية معينة فإن هذا يبقى - طبعا - مسألة حظ . ولكن بروز الأشخاص ذوى المواهب التى تلازم حاجات العصر هى حقيقة واقعة لها طابع القانون الطبيعى » (الطبعة الثانية - صفحة ١٨٢) .

عند هذا الحد يتوقف مايعنينا من التفسير الماركسى لظاهرة البطل أو مايعبرون عنه « الرجل العظيم » وإن كنا قد نعود إليه لمحاولة تفسير ماقالوا عنه إنه « طبعا مسألة حظ » .

(٤)

البطـل .. والمعبـود

مضــمون الــدور ..

وجد البطل ووجد دور البطولة فكيف يلتقيـان ليكون هـذا الشخص أو ذاك أو شخص بعينه هو البطل ؟ . لانقول كما قيل : « هذا طبعا ـ مسألة حظ محض » إن كلمة « طبعـا » هنـاتصـدم الحس العلمى . إذ أن إحـالـة مـالانعى إلى الطبيعـة التى لاتعى هو استبعاد لوعى الإنسـان . على أى حال نجتهد مبتـدئين من البـدايـة . والبـدايـة هى إن حركة المجتمعات محكومة بقوانين (سنن) موضوعية ذات فاعليـة حتميـة (لاتتبـدل) ، وإنها قوانين « جـدليـة » . طبقـا لتلـك القوانين « لابـد » لكل مجتمع مز أن يتطور من خلال حل مشكلات الحياة فيه (إشباع حاجـات النـاس المـاديـة والمعنويـة والروحيـة المتجددة أبدا) . هذا التطور ضرورة موضوعية بالنسبة إلى أى مجتمع بحيث إنه إذا مـا قـام مؤثر خـارجى أو داخلى يعطل حركـة التطور الاجتماعى يصبح الصراع الاجتماعى محتوما لإزاحة العائق حتى يستأنف التطور حركته . ويتم التطور الجدلى بمعرفـة وعلم وعمل الانسـان ولايتم بدون عمل إرادى . بمعرفـة المشكلات الاجتماعيـة معرف علميـة أى بدون إخفاء أو اختلاق أو تزييف إذ العلم هو « معرفة المعلوم على مـاهو بـه » كما قـال القاضى أبو بكر الباقلانى . والعلم بحلهـا الصحيح طبقـا لقوانينهـا النوعيـة . وتنفيـذ هـذا الحل فى الواقع بـالعمل المنـاسب . وبقـدر مـايعرف النـاس من مشكلات مجتمعـاتهم معرفة علمية ، وبقـدر مـا يملكون من العلم بحلولهـا الصحيحـة ، وبقـدر مـايؤدون من عمل منـاسب تنفيـذا لتلـك الحلول ، تتسق الحركـة الاجتماعيـة مع فـاعليـة قوانينهـا وتتطور المجتمعـات . (هـذا المنطلق الفكرى الـذى يبـدو غـامضـا يحتـاج إلى مـزيـد من المعرفة بشروح منهج جدل الإنسـان يضيق عنها هذا الحيز) .

قد يحدث ، وقد حـدث كثيرا أن تكون مقـدرة النـاس على تطوير مجتمعـاتهم (حل مشكلاتها) أقل مما تقتضيه حلول تلك المشكلات . ويكون هذا ـ دائما ـ نتيجـة ظروف تاريخية أضعفت مقدرة النـاس أو الشعوب على التطور بقـدر مـاهو ممكن موضوعيـا . قد يرجع العجز إلى ضعف فى معرفة المشكلات الاجتماعية معرفة علميـة نتيجـة شيوع الجهل والخرافات مثلا ، أو قـد يرجع إلى التخلف العلمى الـذى يضعف مقـدرة الشعوب على معرفـة الحلول الصحيحـة لمشكلاتهـا . أو قـد يرجع إلى ضعف فى المقـدرة على أداء الأعمال اللازمة لتنفيذ تلك الحلول ، وأخطر مصادره شيوع المذاهب الجبرية التى تربى النـاس على توقع حل المشكلات الاجتماعيـة بـدون تـدخـل عمـل إرادى إنسـانى . أو قـد يرجـع إلى ضعف عـام (تخلف) فى كل هـذا وهـو الغـالب فى المجتمعـات التى وقعت لفترة طويلة نسبيا تحت السيطرة الأجنبية حيث يضعف الاستعمار أو القهر مقدرة ضحاياه

من الشعوب على التطور على جميع المستويات فيصبح هو مشكلة المشكلات جميعا ، وتصبح الحرية الحل الأول لمشكلات التطور . على أى حال حين يصل مجتمع معين فى زمان معين إلى عجز ذاتى عام عن حل المشكلات الاجتماعية تقوم الضرورة الموضوعية (الحاجة الاجتماعية) إلى « من » يعوض هذا العجز ويكون ذلك إيذانا بوجود « دور البطولة » .. أما مضمون الدور فيتحدد فى كل مجتمع تبعا لمضمون المشكلة الاجتماعية التى ولدت الحاجة إلى البطل فى زمانه .

ثلاثة أبطال ..

قد تكون الحاجة الاجتماعية منصبة على من يعرف أو من يعوض العجز العام عن معرفة حقيقة المشكلات الاجتماعية معرفة علمية صحيحة . حينئذ يبرز « الأبطال » من العلماء ، أو « أبطال العلم » ليطرحوا على المجتمعات تشخيصا علميا صحيحا للمشكلات التى تعوق التطور . قد لايعرف هؤلاء « الأبطال » العلماء كيف تحل المشكلات التى اكتشفوها وقلما يكونون قادرين على أداء العمل الاجتماعى الذى يتطلبه حلها . من الأمثلة البارزة لهذا النوع من الأبطال العلماء كارل ماركس . كان عشرات من علماء الاقتصاد من قبله قد أدركوا أن ثمة مشكلة فى النظام الرأسمالى تعوق تطور المجتمعات وتهدد بكارثة فقيل لهم مدرسة المتشائمين من أمثال نالتس وريكاردو ولكنهم لم يعرفوا تلك المشكلة على حقيقتها العلمية فلم تفلح مقترحاتهم لحلها فى انطلاق الطاقة البشرية إلى مزيد من التقدم الاقتصادى بدون « كارثة » الاستغلال . وكأن كارل ماركس وحده وليس أحد قبله هو الذى استطاع أن يكتشف حقيقة مشكلة النظام الرأسمالى . إنه بحكم قوانينه الاقتصادية نظام استغلال قبل أن يكون نظام إنتاج أو توزيع .ومع ذلك فإنه طوال حياته لم يقل شيئا يذكر عن حل مشكلة النظام الرأسمالى . قال إن النظام الرأسمالى سيؤدى ، طبقا لقوانينه ، إلى ثورة البروليتاريا (عمال المنشآت الصناعية) وإلغاء الملكية الخاصة لأدوات الإنتاج ، أما عما بعد ذلك ، أى كيف يكون النظام البديل فإنه لم يقل شيئا يمكن أن يعتبر حلا اشتراكيا أو شيوعيا لمشكلة النظام الرأسمالى . الواقع أنه لم يكن يعرف وكان أكثر أمانة من أن يدعى . ولكن هذا لم ينتقص من استحقاقه موقعا بارزا بين أبطال العلم أو العلماء الأبطال . فقد أدت نظريات ماركس فى الاقتصاد إلى زيادة معدل سرعة التطور الاقتصادى والاجتماعى فى كل المجتمعات المتحررة بما فيها المجتمعات الرأسمالية ذاتها عن أضعاف معدله قبل ماركس . إذ أن الرأسماليين كانوا من بين الذين استفادوا من تلك المعرفة فحاولوا ويحاولون عن طريق التطور التكنولوجى فى عمليات الإنتاج خاصة ، الملائمة بين النظام الرأسمالى وبين حتمية التطور إلى مايتجاوزه بدون

« كوارث » ، ويمدون فى عمر نظامهم مدا صناعيا وإن كانوا يعوقون التطور بها هو ممكن علميا ولكن إلى حين .

وقد تكون المشكلات الاجتماعية معروفة معرفة علمية صحيحة ويكون العجز منصبا على معرفة الحل الصحيح فتقوم الحاجة الاجتماعية إلى « من » يعرف الحل الصحيح فيجيب السؤال الذى يطرحه مجتمعه : « ما العمل ؟ » . وهو دور بطولة أيضا وإن اختلف مضمونه . حينئذ يبرز الأبطال من رجال موهوبين بسعة الأفق ونفاذ البصيرة والمقدرة الفذة على اكتشاف المخارج الصحيحة من المآزق المحكمة التى لايعرفها الجميع . من الأمثلة البارزة لهؤلاء الأبطال شارل ديجول بطل فرنسا . كانت فرنسا مهزومة مسحوقة ماديا ومعنويا وروحيا تحت الاحتلال النازى . وكانت كل النظريات والمبادئ والأفكار والمذاهب والنظم والقيم التى سادت فرنسا قبل الاحتلال النازى قد فشلت فى تعبئة وتوحيد قوى الشعب على الثقة (مجرد الثقة) بمقدرته على مواصلة القتال وجدواه فى تحرير فرنسا . حتى بطل فرنسا فى الحرب الأوروبية الأولى الماريشال بيتان أجرى حسابات الواقع « المر » فانتهى إلى عجز فرنسا عن المقاومة فاستسلم وأصبح الماريشال العجوز رئيسا لفرنسا العاجزة يحكمها فى ظل الاحتلال ويضعها فى خدمة العدو الألمانى . تلاشت فرنسا المستقلة من أمل الجميع كما يتلاشى المحال من الوعى فلم يجد القائد السياسى الإنجليزى ونستون تشرشل مكانا للإبقاء على « ماكان » فرنسا إلا بأن تلحق بإنجلترا فعرض على الفرنسيين « الوحدة » . من قاع ذلك العجز الكامل الشامل التقط ضابط اسمه شارل ديجول ، فى آخر لحظة وهو يغادر فرنسا ، التقط الراية العتيدة المركونة فى مخازن ضمير الأمة الفرنسية ، راية القومية . رفعها وهو يغادر الوطن القومى المحتل ، كان ديجول فى فرنسا ضابطا مثل غيره من بقايا الجيش المهزوم المسحوق ، ولكنه حين غادرها رافعا راية القومية أصبح رمزا للأمة الفرنسية ووحدة الفرنسيين فهاجروا إليه زرافات ووحدانا والتفوا حوله مذاهب وألوانا ، وقاتلوا تحت قيادته شيبا وشبانا عائدين إلى فرنسا الحرة يتقدمهم « البطل » شارل ديجول (سيضطر ستالين أيضا إلى رفع راية القومية فى الحرب ضد ألمانيا النازية ، الراية التى كانت قد مزقتها الماركسية . فتنتصر الجيوش السوفيتية ويصبح ستالين بطلا) .

وقد يكون الحل الصحيح للمشكلات معروفا بل وشائع المعرفة ثم يعجز الناس فرادى ومجتمعين عن تحقيقه فى الواقع بالرغم من محاولاتهم بأساليب شتى حتى يشيع فى الأذهان أنه « مافيش فايدة » (قالها سعد زغلول باشا قائد ثورة ١٩١٩ فى آخر حياته) ،فيبرز من الرجال رجل (أو رجلة مثل جان دارك بطلة فرنسا التاريخية) موهوب بالثقة غير المحدودة بالنصر وبأسلوبه وبنفسه فيتولى القيادة مبادرا إليها

بدون توقف على إذن أحد ، مؤمنا بالنصر بدون برهان ظاهر ، معبئا الآخرين بالثقة فيه وفى أنفسهم وفى النصر ، لاعن طريق الحوار أو الدعوة أو الدعاية أو تأليف الكتب أو صياغة النظريات بل عن طريق « الممارسة » التى يرى فيها الناس صورة « البطل » الذى كانوا يحلمون به . فإذا بما كان يبدو غير قابل للتحقيق قد تحقق على وجه يبدو غرابة « اللامعقول » . فيقال إنها عبقرية القائد . وهذا صحيح . ويقال بل إن ماتحقق كان قابلا للتحقق دائما . وهذا صحيح أيضا . كل مافى الأمر أن الوعى العام لم يكن يدرك أنه كان قابلا للتحقق دائما إلا بعد أن قاد « البطل » ممارسة تحقيقه .

إن كل أبطال الثورات المنتصرة من هذا الطراز . أبطال الأداء المتميز الذى يطور الواقع الاجتماعى طفرة إلى الأمام ، أو يزيح سدا ثقيلا على طريق تطوره فيتطور ، على وجه لم يكن أحد يتوقعه إلا « البطل » . تسمى ثورة أو لاتسمى لايهم فتلك ملهاة العاجزين إلا عن « استغراب » صنع التاريخ على غير مايعرفون . المهم فى التاريخ أن يكون البطل قد أنجز دوره .

قال ستالين فيما كتبه عن « ثورة أكتوبر » : « كان وضع الحزب البلشفى وموقفه بالغ الضلال ذلك لأنه غرق فى أوهام سلمية ، وتبنى الموقف الدفاعى . وعرقل وضلل وعى الجماهير الثورى . وفى تلك الأيام كنت أشارك فى هذا الخطأ مع الآخرين من رفاق الحزب ثم ما لبثت أن أقلعت عنه تماما فى منتصف أبريل عندما أيدت ودعمت نظرية لينين » . والواقع أن حزب البلاشفة كان أقلية تافهة العدد فى روسيا القيصرية . وإلى أن عاد لينين إلى روسيا فى ٣ أبريل ١٩١٧ كان الحزب وجريدته يؤيدون الحكومة المؤقتة التى يرأسها كيرنيسكى . وكان البلاشفة الروس يبحثون فكرة الاندماج كليا فى حزب المنشفيك . كانوا فى يأس كامل وشامل من قيادة الثورة فهم يبحثون عن مكان فيها ولو قريبا من الذيل . ثم جاء « لينين » وأعلن بحزم برنامج الحزب : إنهاء الحرب ضد ألمانيا، وتحويلها إلى حرب أهلية وإسقاط حكومة كيرنيسكى بالقوة . قيادة الثورة للحزب البلشفى وكل السلطات للسوفيت .. ولم يكن مؤيدو البرنامج إلا أقلية فى الحزب ، ولم يكن الحزب يملك من وسائل تحقيق البرنامج إلا صياغته فى جمل ثورية . ولكنه كان قد تملك « لينين » الذى وعد السوفيتات وهى اللجان الشعبية التى كان قد شكلها فى أنحاء روسيا حزب الاشتراكيين الثوريين ، وليس حزب لينين ، وعدها لينين بالسلطة تحت قيادة الحزب البلشفى فانحازت لحزب لينين ونصرته فتولى السلطة . وانتصر لينين انتصارا « غير معقول » لولاه ، فكان بطلا .

ومن قبل تحالفت ثم تكالبت كل القوى الأوروبية نهشا فى كيان الثورة الفرنسية الذى أنهكه العنف المتبادل بين فصائل قيادتها ، وأفزع الشعب نفسه وأيأسه الحصار

المفروض عليه بين سنان المقصلة الدموية الجنونة المسلطة عليه في الداخل وسنان الحراب المشرعة ضده وضد ثورته في الخارج . فطمع أنصار الملكية في الثورة وهبوا مرتدين . فاستعانت إدارة الحكم المدنى بضابط كورسيكى شاب كان يتسكع بدون عمل في باريس إلا الإفضاء من حين إلى حين للحاكين بأفكاره « غير المعقولة » . كان اسمه نابليون بونابرت . فأطلقت يده في إنقاذ الثورة فسحق سحقا دمويا التمرد الأول للملكيين . وسحق سحقا دمويا انقلابهم « الناجح » الذى كان يصفى الثورة (تم أثناء غيبته عن باريس) . وسحق محاولة فرانسوا بايوف الانتهازى الذى أراد أن ينقض على الثورة لحساب وهم ثورى في رأسه . ثم قاد نابليون جيشا من الجوعى العراء الفقراء في الرواتب والسلاح والخبرة بالقتال . قادهم عبر الحدود الجنوبية إلى إيطاليا (٢٨ مارس ١٧٩٦) ليسحق بهم على وجه يبدو غير قابل للتصديق طبقا لأى ميزان لقوى الحرب جيوش الدول الأوربية ، أعداء الثورة ، ويدخل فيينا ويملى على النمسا ، وعلى البابا شروط الثورة ، فينقذ الثورة من حيث لم يكن أحد يتصور أن يأتى الإنقاذ . فاكتشف فيه الفرنسيون بطلها وأقر له العالم ولم يزل بأنه بطل الثورة الفرنسية وواحد من أبرز أبطال الثورات في تاريخ العالم .

المعبـــود ..

لسنا نقول بهذا التنوع الثلاثى في أدوار البطولة وسمات الأبطال من باب الفذلكة . وأرجو ألا يكون غريبا أو مستغربا لأنه غير مسبوق . معروف أن تعدد وتنوع أدوار البطولة بدون حصر أمر سائد في دراسة الظاهرة . ولكن حصر الأنواع في ثلاثة غير مسبوق ويبدو غريبا وإن كان عندنا موثوق . ذلك لأننا لانحتفى بالبطولة انبهارا بالأبطال بل لدلالتها التقدمية ، وحركة التقدم الاجتماعى طبقا لجدل الإنسان ثلاثية الإيقاع : « المشكلة ـ الحل ـ العمل » .قد تنطوى كل خطوة على أوجه متعددة من النشاط البطولى ومع ذلك تبقى كل الأنشطة البطولية راجعة إلى الحركات الثلاث للتطور الاجتماعى .

الذين يقرأون الكتب خفية وينكرون قراءتها علنا ، والذين يتبنون الأفكار خلسة وينكرون أصحابها جهرا ، والذين يستعلون ادعاء على منابع الفكر العربى لأن منابع الفكر عندهم لاتينية مدعوون إلى تقبل وتأمل ما نقدمه إليهم فقد يعلمون منه مالم يعلموا .. وهو بعد خطير .

بعد أن مات « المجرم » نابليون عام ١٨٢١ بعشر سنوات أجبرت ثورة ١٨٣٠ الشعبية الملك العائد لوى فيليب على الاعتراف بأن نابليون كان بطلا قوميا لفرنسا ، وإقامة تمثاله على قمة نصب في ميدان الفندوم في باريس وإرسال بعثة برئاسة ولى

العهد نفسه ، الأمير فرانسوا ، إلى جزيرة سانت هيلانة ، لإحضار رفات الإمبراطور لتدفن على ضفاف السين فى باريس تنفيذا لوصيته ثم لم تشهد أوربا من قبل أو من بعد جنازة مثل جنازة تشييع رفات نابليون إلى مقبرة الخالدين (الأنفاليد) فى ١٤ ديسمبر ١٨٤٠ . وفى مصر عاش أحمد عرابى بعد هزيمته عام ١٨٨٢ مجرما منفيا فقيرا شريدا أدانه كل الذين عاصروه ولم يكونوا معه ومازال منكورا ومتهما فى التاريخ إلى أن قامت ثورة ١٩٥٢ فأقر لأحمد عرابى بأنه كان بطلا وطنيا وقائدا ثوريا ورد له اعتباره وأقيم له تمثاله وردت أمواله وأموال رفاقه المصادرة إلى ورثتهم بعد سبعين عاما من النكران .

هذان نموذجان لرجال فى التاريخ ماتوا « مجرمين » ثم بعثوا فى التاريخ « أبطالا » وكان الذين أدانوهم هم الذين بعثوهم ، وفيما يلى نموذجان لمن ماتوا أبطالا ثم بعثوا مجرمين .

لقد مات ستالين « بطلا » يوم ٥ / ٣ / ١٩٥٣ وبعدها بثلاث سنوات فقط أدين بأنه كان مجرما . وكان الذين توجوه بطلا تاريخيا قبل أن يموت هم الذين أدانوه بالإجرام بعد موته . وماتزال جثة تاريخ « بطل الصين الشعبية » ماوتسى تونج مسجاة على مشرحة رفاقه فى الحزب الشيوعى الصينى يجردونها قطعة قطعة من ثياب البطولة التى ألبسوه إياها وقدسوه من أجلها أثناء حياته ..

فكيف يحدث هذا ؟ ..

كيف يسمح العلم بالعبث بتاريخ الشعوب وقيمها ورموزها ومثلها العليا تبعا لأهواء الحاكمين ؟ حينما ووجه خروتشوف بالسؤال : لماذا لم تنتقد ستالين إلا بعد أن مات ؟ قال : لأننا كنا فى حياته خائفين . لم يقل أحد له كيف تسمح لنفسك بأن تقود دولة عظمى وأنت خواف . كما لم يقل له أحد ، مادمت قادرا على الكذب ولو خوفا من ستالين فما الذى يضمن أنك لاتكذب الآن خوفا على منصبك .. إلخ . الواقع أن عبدة الأبطال فى حياتهم جلاديهم بعد مماتهم قد حولوا البطولة من مقولة علمية إلى مأساة خلقية ذات آثار تربوية بالغة الخطورة . إذ ما الذى يفعله الآباء والأمهات والمدرسون والأساتذة والكتاب حين ينقلبون من ذل الرياء فى حياة البطل إلى فجر العداء بعد موته ؟ أنهم يشوهون كل قيم الصدق والأمانة والشجاعة لدى الناشئة من تلك المخلوقات التى تسمع وترى وتراقب ولاتنطق بسبب الطفولة أو بسبب التهيب أو بسبب التأدب فلا يصدقون المربين ولايحترمونهم ، فلماذا ؟

إلى أن يجيب أحد نقول إن ليس مرجع الأمر كله إلى الغباء أو الأخطاء . إنما يرجع بعضه إلى افتقاد دلالة البطولة إلى محدد علمى يحول دون أن تتحول من صفة

للموضوع إلى صفة للذات . من صفة لدور إلى صفة لشخص . من أن تكون نسبتها للبطل مقيدة بدور محدود إلى أن تكون نسبتها للبطل مطلقة بدون قيود ، فيصبح البطل فى أداء دور تاريخى بطلا تاريخيا لكل الأدوار بل يصبح كل دور يؤديه هو دور بطولة .. لايعنى هذا إن التحديد العلمى لدلالة البطولة سيلغى وثنية عبادة الأبطال ، فثمة من لايشبع رغبة العبودية الكامنة فى أنفسهم إلا بطل فإن لم يجدوه اصطنعوه . إنما يفيد هذا التحديد فى تقييم أداء البطولة تقييما موضوعيا والتعامل مع الأبطال أو تاريخهم تعاملا عادلا . لاتقديس ولاتفليس .

التنوع الثلاثى لظاهرة البطولة هو المحدد العلمى . وبه لاتكون البطولة عامة أو مطلقة بل محددة بمضمون دورها لاتتعداه إلى ماعداه من نشاط الشخصية . فالإقرار بأن ماركس كان بطلا عالما لايعنى أنه كان بطلا فى غير ذاك الميدان . والواقع أن أحدا لم يتوقع من ماركس أن يقود حزبا أو يشعل ثورة أو ينشئ دولة ولو كان نظامها ماركسيا .كان الرجل فيما عدا ميدان بطولته عاديا . وفى بعض أوجه الحياة الإنسانية كان أقل من العادى . كذلك كان الأمر بالنسبة إلى شارل ديجول . فبالرغم من أن « مهنته » الأصيلة القتال فإنه لم يبرزقط كمقاتل ولم يعرفه أى ميدان قتال بطلا حتى أثناء تحمله مسئولية قيادة قوات فرنسا الحرة . ولكنه كان بطلا سياسيا حين قدم إلى الشعب الفرنسى الحل الصحيح للخروج من الهزيمة . أما لينين البطل فى ميدان الثورة فقد غفر له انتصاره فى النهاية ما جنت يداه فى البداية . ولقد كانت بداية لاتغتفر إلا لمن ثبت أنه بطل . ذلك لأن الماريشال الألمانى لودندورف كان هو الذى دبر وسيلة مرور لينين من سويسرا إلى روسيا عبر ألمانيا فى عربة قطار مغلقة ليساعد على إخراج روسيا من الحرب ، وألمانيا فى ذلك الوقت فى حرب فعلية مع روسيا . إن قبول لينين أن يتولى أعداء وطنه نقله إلى ميدان القتال ليحقق لهم مايريدون خيانة وطنيه اتهم بها لينين فعلا لولا إنها مضافة إلى لينين « البطل » كانت الوسيلة الوحيدة للوصول إلى ميدان الثورة لإنقاذ الوطن . كما أن الذين يقرأون كتب وخطب ورسائل لينين لاشك يدهشهم ويصدمهم الأسلوب الحاد والشتائم البذيئة التى يستعملها فى « الحوار » مع المختلفين معه فى الرأى . يقول سيدنى هوك فى كتابه « البطل فى التاريخ » : « .. كان لينين فى بعض الأحيان ينصح البلاشفة بذات الطريقة المؤلمة التى ينصح بها المعلم تلميذا ذكيا ولكنه طائش وضال . وكان أحيانا يعنفهم بمثل الخشونة التى يعنف بها عريف فارغ الصبر مجندا جديدا فجا » . وليس فى كل هذا مايمت إلى البطولة بصلة . ولم يكن الأمر بالنسبة إلى نابليون بطل الثورة الفرنسية منكورا أو قابلا للإنكار . فالمحصلة النهائية لقيادة نابليون هى هزيمته وأسره ونفيه وعودة الملكية إلى فرنسا بعد سلسلة مروعة من الهزائم العسكرية على كل الجبهات

وعشرات الألوف من الضحايا الفرنسيين واستنفاد حتى الإفلاس للاقتصاد الفرنسي .. إلخ . أما عن حياته الخاصة والأسرية فقد كانت « مزبلة » على رأى هـ . ج ويلز وهو يتحدث عن نابليون فى كتابه « ملخص التاريخ » ومع ذلك فإن هزائم القائد العسكرى ونزوات الحاكم الكورسيكى لم تختلط ولم تنل من بطولة منقذ الثورة .

إذن ...

إن البطولة صفة لدور اجتماعى تنسحب إلى من يؤديه فعلا وليست صفة لإنسان تنسحب إلى كل ما يؤديه . على هذا الوجه تغلق أبواب النفاق دون وثيقة عبادة الأشخاص ولو كانوا قد أدوا أدوارا بطولية وبالتالى لايكون أى بطل محصنا ضد النقد معصوما من الخطأ أو أن تكون ذاته مصونة لاتمس . هذا من ناحية . ومن ناحية ثانية ، لايطلق ولايقبل إطلاق ، صفة البطل على شخص خارج نطاق دور البطولة الذى أداه . ومن ناحية ثالثة ، لاتنكر ، ولايجوز إنكار ، بطولة شخص لأسباب خارج نطاق الدور الذى أداه . ليس معنى هذا أن مايؤديه البطل خارج نطاق دور البطولة غير ذى أثر فى تقييمه كإنسان وكبطل . لا . فإن قيمة كل إنسان ، بطلا كان أو غير بطل ، متوقفة على مدى اتساق نشاطه مع مجموعة من الضوابط الاجتماعية الحضارية السائدة فى المجتمع الذى ينتمى إليه . ومع أن تلك ضوابط مختلفة تبعا لاختلاف المجتمعات والحضارات إلا أنه لم يوجد ولايمكن أن يوجد « بطل » خارج على قيم المجتمع الذى ينتمى إليه مهما « ارتكب » من أعمال المهارة أو الجسارة أو الإمارة . لسبب بسيط ، هو أنه من المحال ـ للتناقض ـ أن يحتاج مجتمع إلى من ينقض قيمه الحضارية .

هكذا نستطيع بسهولة ، كما نعتقد ، معرفة الحدود الفاصلة ، على المستوى الفكرى والسياسى ، مابين دور البطولة الذى استدعى عبد الناصر فأداه فى الماضى والدور الذى يستدعى الناصرية لتؤديه فى المستقبل .

(٥)
البـــذور

سأل عبد الناصر نفسه فى كتابه « فلسفة الثورة » ، متى كان ذلك اليوم الذى اكتشفت فيه بذور الثورة فى أعماق ؟ .. وأجاب : « أنه بعيد » ثم أضاف : « إن تلك البذور لم تكن كامنة فى أعماق وحدى وإنما وجدتها كذلك فى أعماق كثيرين غيرى . هم الآخرون بدورهم لايستطيع الواحد منهم أن يتعقب بداية وجودها فى كيانه . إن هذه البذور ولدت فى أعماقنا حين ولدنا . إنها كانت أملا مكبوتا خلقها فى وجداننا جيل سابق » .

عم كان يتكلم عبد الناصر ؟
ماهو الأمل المكبوت الذى تداولته أجيال متعاقبة ؟

أولا : إن كان الأمل فى معرفة مشكلة مصر معرفة علمية صحيحة فإنه لم يوجد فى مصر . منذ الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ حتى ثورة ١٩٥٢ . أحد يعتد به احتاج إلى . وبالتالى حمل أملا فى . من يعلمه أن الاحتلال البريطانى هو مشكلة مصر الأولى ومصدر كل مشكلاتها التى لن تحل إلا بعد أن تتحرر مصر من الاحتلال .

ثانيا : إن كان الأمل فى معرفة الحل الصحيح لمشكلة الاحتلال فإنه لم يوجد فى مصر . منذ الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ حتى ثورة ١٩٥٢ . أحد يعتد به احتاج إلى . وبالتالى حمل أملا فى . من يعلمه إن تحرير مصر واستقلالها هو الحل الصحيح لمشكلة الاحتلال .

ثالثا : كيف التحرير ؟ .. هذا هو السؤال . لم يكن الأمل المكبوت الذى تناقلته الأجيال فى مصر إلا أمل اكتشاف الأسلوب المناسب لإجلاء المحتلين وتحرير مصر .

هذا الأمل الذى بقى معلقا سبعين عاما بعيدا عن الواقع قصة ينبغى أن يلتفت إليها الجيل الجديد ليعرفوا على الأقل أن أباءهم وأجدادهم وأباء أجدادهم .. إلخ لم يفشلوا فى تحقيق أملهم فى تحرير مصر لأنهم كانوا أقل علما أو معرفة أو وطنية أو شجاعة او تضحية من جيل ثورة ١٩٥٢ . أو أن هذا الجيل كان يملك من أسباب النجاح اكثر مما كانت تملك أجيال سبقته لولا أنه كان يملك ضابطا اسمه جمال عبد الناصر .

نروى ملخصا لهذه القصة ، قصة بذور ثورة تحرير مصر الممتدة منذ الاحتلال وننتهزها فرصة لإشباع هوايتنا فى التذكير بما نذكره من أسماء قادة وشهداء الحركة الوطنية الذين لايذكرهم أحد عادة .

الخط « الدرامى » فى هذه القصة (إذ صح التعبير) هو أنه منذ البداية فى ١١ يوليو ١٨٨٢ حتى النهاية فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ لم يكف أى جيل من أجيال الشعب عن محاولة تحرير مصر . ما أن يشب الأطفال حتى يقتحم جيل جديد من الشباب معارك مقاومة الاحتلال . الجيل الذى عاصر الاحتلال قاومه عسكريا وشعبيا تحت قيادة أحمد عرابى . كان مصطفى كامل فى ذلك الوقت غلاما فما أن شب مع جيله حتى كان يقود جيله فى المقاومة . ثم لم تمض أكثر من إحدى عشرة سنة على وفاة مصطفى كامل حتى كان جيل جديد ، يفجر ويخوض ثورة ١٩١٩ تحت قيادة « الشيخ » سعد زغلول . والذين كانوا أطفالا عام ١٩١٩ لم يلبث جيلهم أن أوفى بمسئولية المقاومة فى عام ١٩٣٥ . ومن صفوف الناشئة عام ١٩٣٥ ستستأنف المقاومة فور انتهاء الحرب الأوروبية الثانية عام ١٩٤٥ بينما يكون جيل جديد قد بدأ يخطط لثورة ١٩٥٢ . وهكذا تطهرت كل الأجيال فى نهر الحركة الوطنية المتدفق لم يتخلف أحد .

ولقد استعملت تلك الأجيال المتعاقبة كل مايخطر على البال من أساليب مقاومة الاحتلال .

انضوت قوى كثيرة فى خط الأسلوب السياسى السلمى . قبول الاحتلال كأمر واقع والتعامل معه إداريا والتماس التحرر عن طريق التدرج الإصلاحى فى التربية والتعليم والتقدم الاقتصادى ، وبوجه خاص ، تدريب الشعب ورفع كفايته على حكم نفسه فى نظام دستورى ديمقراطى ومفاوضة المحتلين أنفسهم لإقناعهم بأن شعب مصر قد بلغ من رشد التمدين - على الطريقة الأوروبية - مايؤهله للاستقلال . فكونت تلك القوى أحزابا عدة : حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية (١٩٠٧) وحزب الأحرار (١٩٠٧) وحزب النبلاء (١٩٠٨) والحزب المصرى (١٩٠٨) والحزب الدستورى (١٩١٠) وحزب الوفد (١٩١٨) وحزب الأحرار الدستوريين (١٩٢٢) والهيئة السعدية (١٩٣٨) والكتلة الوفدية (١٩٤٢) .

أما عن القوى الثورية فقد اقتحمت المعارك قبل أن تفكر فى الأحزاب ففى يوم الاحتلال ذاته (١١ يوليو ١٨٨٢) قصفت البوارج الإنجليزية مدينة الإسكندرية تمهيدا لبدء الاحتلال ، أما رجال الحزب الوطنى أحمد عرابى وصحبه وقادة وجند المقاومة العسكرية المنتصرون فى رد العدوان عن الإسكندرية المنهزون فى بلبيس فمذكورون . مذكور أيضا أن عدد القتلى من أفراد الشعب قد تجاوز الألفين فى يوم واحد . لا أحد يذكر هؤلاء ويتركونهم كا لو كانوا ضحايا القصف العشوائى أو العاجزين عن الهروب .

لولا أن يقول الإمام محمد عبده فى كتابه عن الثورة أنه أثناء ضرب مدينة الإسكندرية « كان الرجال والنساء تحت مطر من القنابل ونيران المدافع ينقلون الذخائر ويقدمونها إلى بعض الطوبجية (رجال المدفعية) وكانوا يغنون أغنيات تلعن الأميرال سيمور ومن أرسله » . تصوروا . الشعب ، الناس العاديون الذى قال روسو منذ قرنين ألا أحد غيرهم يستحق الاهتمام . ما أن يبدأ العدوان حتى يدخلوا ضده المعركة غير مجندين رجالا ونساء ، غير مسلحين فيحملون إلى الجندين الذخائر تحت مطر من القنابل غير محصنين ، ونيران المدافع غير هيابين ويؤلفون الأغانى وحى اللحظة ويغنونها نشيدا للثورة .

وفى عام ١٩٠٠ أنشأ الحزب الوطنى جهازا للتوعية والإعلام والتعبئة الفكرية والمعنوية والدعائية لمقاومة الاحتلال قوامه ثلاث صحف تصدر كل منها بلغة (العربية والإنجليزية والفرنسية) وأرسل بعض شبابه إلى « سويسرا » للحصول على جنسيتها والعودة محصنين ضد الإجراءات البوليسية كأنهم غير مصريين ، وفى عام ١٩٠٦ ـ قبل أن ينتظم حزبا ـ أنشأ منظمته الثورية لمقاومة الاحتلال وعملائه بالعنف المسلح . كان أول المؤسسين إبراهيم ناصف الوردانى ومحمود عنايت وعبد الحميد عنايت وعبد الفتاح عنايت وخليل مدكور وشفيق منصور وعوض جبريل ونجيب الهلباوى . وبدأوا نشاطهم ردا على مذبحة ١٣ يونية ١٩٠٦ حيث حوكم الفلاحون فى قرية دنشواى على ما أسند إليهم من الدفاع عن قريتهم ضد الجند الإنجليز وأصدر بطرس باشا غالى قاضى المحكمة الصورية أحكام الإعدام والجلد فأُعدم أربعة من أهل القرية فى القرية أمام ذويهم . ففى يوم ٢٠ فبراير ١٩١٠ أعدمت المنظمة بيد إبراهيم الوردانى الخائن بطرس غالى وأعدم الشهيد يوم ٢٨ يونيو سنة ١٩١٠ وهو يهتف « الله أكبر الذى يمنح الحرية والاستقلال » .

وفى عام ١٩١٤ اندلعت الحرب الأوربية الأولى فأعلنت إنجلترا « الحماية » على مصر وأفرغت مصر من رجالها العاملين إذ « وضع نظام للتطوع ظهر عدم كفايته فصدرت الأوامر بأخذ العمال من الحقول بالإكراه وطريقته أن يدخل رجال الحكومة القرية وينتظروا رجوع الفلاحين إلى منازلهم عند الغروب فيحدقون بهم كالأنعام وينتقون خيرهم للخدمة فإذا رفض أحدهم التطوع الإجبارى جلد حتى يقر بالقبول (صحيفة الرائد البريطانية فى ٣ أبريل ١٩١٩) . بلغ « المتطوعون » للعمل فى جبهة القتال وراء الخطوط وفى الخنادق فى الجبهة الشرقية وفى أوربا أكثر من مليون . وحل محل الشعب المنزوح من وطنه ما ملأ أرض الوطن من أشتات الجند . كتبت مس درهام مقالا يوم ٢ أبريل ١٩١٩ فى جريدة الديلى نيوز قالت فيه : « بلغ الجنود الإنجليز من الجهل أنهم كانوا يظنون مصر بلدا إنجليزيا وأن المصريين أجانب دخلاء فيعجبون كيف سمح

لهؤلاء العبيد بأن يأتوا إلى هذه الديار » . وما أن انتهت الحرب حتى اندلعت الثورة فى ٩ مارس ١٩١٩ لم يتخلف أحد عن الإسهام فيها حتى النساء وتعرضت القرى فى الريف للاجتياح المسلح . قتل أكثر من مائة مواطن فلاح ثائر من قرية ميت قرشى . وقتل شنقا ٥١ مواطنا فلاحا ثائرا من قرية دير مواس . وقتل من لم يهتم أحد بحصرهم فى قرى أسيوط والواسطى وصنبو وملوى والمنيا وفاقوس ورشيد وقليوب والإسكندرية فنكاد نقول إن ثورة ١٩١٩ كانت فى الأساس ثورة فلاحين (إخوة وآباء الذين تطوعوا جبرا وأصحاب المحاصيل التى نهبت) . ذلك لأن الفلاحين قد حددوا أهدافهم الثورية بقطع شرايين الاتصال بين قوات الاحتلال (الطرق والكبارى والسكك الحديدية) فأصدر القائد العام للقوات البريطانية يوم ٢٠ مارس ١٩١٩ بلاغا يقول : « كل حادث جديد من حوادث تدمير محطات السكك الحديدية أو المهمات الحديدية يعاقب عليه بإحراق القرية التى هى أقرب من غيرها إلى مكان التدمير وهو آخر إنذار » . وطاردت المنظمة الثورية كبار المتعاونين مع سلطة الاحتلال قذفا بالقنابل اليدوية : يوسف وهبة باشا رئيس الوزراء (ديسمبر ١٩١٩) الوزير إسماعيل سرى باشا (يناير ١٩٢٠) الوزير محمد شفيق باشا (فبراير ١٩٢٠) الوزير حسين درويش ورئيس الوزراء نسيم باشا (يونيو ١٩٢٠). وكسبت المنظمة دماء جديدة : عبد الخالق عنايت (الأخ الرابع من أولاد عنايت) : عبد العزيز على صاحب فكرة تكوين الضباط الأحرار ومنشىء أول خلية منها (ووزير البلديات فى أول وزارة لثورة ١٩٥٢) ومحمود راشد ، وراغب حسين ، وعلى إبراهيم ، والعامل محمد فهمى ، وابراهيم موسى .

كان عبد العزيز على رئيسا للمنظمة الثورية حين قامت ثورة ١٩٥٢ ، وقد كان معجبا إعجابا فائقا بالعامل إبراهيم موسى ولايترك مناسبة إلا وذكره وضربه مثلا للناشئين من أمثالنا . كان وطنيا متصوفا لايتحدث فى السياسة ولكن يطارد الإنجليز ويقتلهم حيث يثقفهم . وكان قناصا لايخطئ الرماية . قال عبد العزيز على إنه وغيره كانوا يضعون خطط إعدام الإنجليز ويتركون دور إطلاق الرصاص لإبراهيم الذى يحضر يوم التنفيذ ويستلم مسدسا ويطلق طلقة واحدة تنهى حياة من أعدم ويسلم المسدس وينصرف هادئا إلى منزله .. « فى الشرابية » . وكان عاملا فى ورش السكك الحديد وأبا لسبعة أطفال .. وقد حاولت أن أنبش حى الشرابية بحثا عن أحد من أسرته لأعرف الجانب الاجتماعى من ثوريته فلم أهتد إلى أحد .

استمر نشاط المنظمة ثلاث سنوات مليئة بجثث كبار رجال الإدارة من الإنجليز . براون مراقب عام وزارة المعارف . كييف وكيل حكمدار القاهرة الذى كان يجبر من يعتقل على أكل روث الخيل . بيجوت مدير مالية الجيش الإنجليزى . براون آخر مدير قسم البساتين . بسون الأستاذ فى مدرسة الحقوق الذى كان يدرس للطلبة عدم

استحقاق مصر للاستقلال وأخيرا وليس آخر السيرلى ستاك « سردار » قائد الجيش المصرى . أعدمه عبد الحميد عنايت وإبراهيم موسى وراغب حسين ومحمود راشد وعبد العزيز على يوم ١٩ / ١١ / ١٩٢٤ . خانهم نجيب الهلباوى فقبض عليهم وعلى بقية أعضاء المنظمة الثورية وفى ٧ / ٦ / ١٩٢٥ استشهد شنقا عبد الحميد عنايت وإبراهيم موسى ومحمود راشد وعلى إبراهيم وراغب حسين وشفيق منصور ومحمود إسماعيل .

ثم جاءت ثورة « الطلبة » عام ١٩٣٥ تحديا لتصريح صمويل هور وزير خارجية بريطانيا الذى اعترض على عودة دستور ١٩٢٣ والتى انتهت بإرغام الملك فؤاد على إعادته . وفيها استشهد الطلبة محمد عبد المقصود شبيكة ومحمد محمود النقيب وعلى طه عفيفى وعبد المجيد مرسى ومحمد عبد الحكم الجراحى وأصيب ١٦٨ طالبا كان من بينهم جمال عبد الناصر الطالب فى مدرسة النهضة الثانوية (جريدة الجهاد فى ١٤ / ١١ / ١٩٣٥) .

أطلق الضابط الإنجليزى ليز أربع رصاصات على الشهيد عبد المجيد مرسى الطالب بكلية الزراعة فقتله . فتقدم محمد عبد الحكم الجراحى الطالب بكلية الآداب وخاطب القاتل بثبات وجرأة قائلا : « أمن الشجاعة أن تضرب بالرصاص شابا أعزل فتقتله » فقال ليز : « أتود أن تلحق به » . فتقدم إليه عبد الحكم قائلا : « أتريد أن تقتلنى أنا أيضا . هل هذه هى شجاعتكم التى تتشدقون بها . هاك صدرى . إننا لسنا جبناء مثلكم » فأطلق عليه الجبان الرصاص ومات شهيدا يوم ١٩ نوفمبر ١٩٣٥ .

قبل أن يموت عبد الحكم أرسل برقية إلى رئيس وزراء إنجلترا « روح الشر » قال فيها : « أحد رجالكم الأغبياء أصابنى برصاصة وأنا أموت الآن شيئا فشيئا ولكنى سعيد للغاية أن ضحيت بنفسى . إن الموت أمر صغير وآلام الموت عذبة المذاق من أجل مصرنا . فلتحيا مصر . فليسقط الاستعمار . ولتسقط إنجلترا . وسيتولى الله عقابكم قريبا أنتم وإنجلترا روح الشر فلتحيا التضحية » .

ثم بدأت الحرب الأوربية الثانية عام ١٩٣٩ .

وبدأ دخول ضباط الجيش حركة المقاومة . أول مجموعة منظمة كانت من ضباط الطيران : وجيه أباظة . حسن عزت . أحمد سعودى . عبد اللطيف البغدادى . حسين ذو الفقار صبرى . عبد المنعم عبد الرءوف . حسن إبراهيم . محمد شوكت . وجيل جديد من الشباب . محمد علوى . يوسف كمال . عبد المعطى عطيه . محمد سليم حجازى ... إلخ . وطلبة المدارس الثانوية . فى القاهرة قتلوا أمين عثمان . وفى الاسكندرية هاجموا معسكرات الانجليز أربع مرات فى الأنفوشى . وفى الشلالات . ومعركة تحسن اسم إسحاق نديم . والنادى البريطانى . أسفرت عن قتل وإصابة ١٢٨ بريطانيا قبل أن يقبض على المنظمة الطلابية الثورية ويزجوا بالثوار فى السجون .

يوم « ٢١ فبراير » من كل عام هو يوم الطالب العالمى .

أسمى كذلك تكريما لذكرى نضال الطلبة فى مصر ضد الاحتلال الإنجليزى .

ففى يوم ٢١ فبراير ١٩٤٦ اجتاحت شوارع القاهرة المحتلة عشرات الألوف من الطلبة والعمال والتجار وصغار الموظفين فى مظاهرات كثيفة تردد هتافين متميزين . الأول : « الجلاء بالدماء » والثانى « لاحزبية بعد اليوم » . من أجل الدلالة التاريخية لهذا الهتاف الأخير نكتب مانكتب ، لم يحدث من قبل أن أجمعت القوى الشعبية الثائرة ضد الاحتلال على الربط بين التحرير وإلغاء الأحزاب . إنه حكم بانتهاء مرحلة تاريخية كاملة بدأت منذ أول حزب تكون عام ١٩٠٧ وهو أذان الشعب ببزوغ فجر ثورة ١٩٥٢ . استشهد فى القاهرة أربعة وعشرون وأصيب مائة وثلاثون . أضرب الشعب جميعه فى اليوم التالى ، واستؤنفت المعارك فى الإسكندرية ، استشهد فى الإسكندرية ثمانية وعشرون وأصيب ثلاثمائة واثنان وأربعون ...

١٩٤٧ و ١٩٤٨ اندفاع قوى الثورة على أرض فلسطين دفعا للعدوان الصهيونى ..

٨ أكتوبر ١٩٥١ حكومة الوفد ألغت المعاهدة . معاهدة « الشرف والاستقلال » كما كان مصطفى النحاس قد وصفها عام ١٩٣٦ . انسحب تلقائيا انسحابا جماعيا من العمل بمعسكرات الإنجليز ستون ألف عامل مضحين بلقمة العيش من أجل .. الوطن فلاشىء غيره ينتظر العاطلين . بدأت الحرب الشعبية المنظمة . وانخرط آلاف من الشباب والكهول فى « كتائب التحرير » المدربة المسلحة يحيطون بالقوات الإنجليزية فى منطقة القناة وشرق الدلتا .

المعارك ضارية والشهداء يتساقطون . فى السويس ٦٨ شهيدا و ١٩٠ جريحا يومى ٣ ،٤ ديسمبر ١٩٥١ . هدم ١٥٦ منزلا فى قرية أم عبده (٧ ديسمبر ١٩٥١) معركة مروعة فى فنارة (١٤ ديسمبر ١٩٥١) . تدمير محطة اتصال لاسلكى أقامها المحتلون فى فردان (١٦ ديسمبر ١٩٥١) مهاجمة مساكن الضباط الإنجليز فى نقطة المحجر (٢٨ ديسمبر ١٩٥١) مذبحة الإنجليز أثناء احتفالهم برأس السنة فى الإسماعيلية (٣١ ديسمبر ١٩٥١) ١٢ قتيلا و ١٨ جريحا . موقعة التل الكبير (١٢ يناير ١٩٥٢) أسر المهاجمون سبعة ثوار ثم ردوا جثثهم وقد نهشتها الكلاب . أول مرة يستخدم الإنجليز الكلاب المدربة فى المعركة . فى اليوم التالى قتل ١٢ ضابطا وجنديا انتقاما للشهداء السبعة . معركة الإسماعيلية ضد رجال البوليس فى مبنى المحافظة (٢٢ يناير ١٩٥٢) استشهد خمسون جنديا وجرح أكثر من تسعين ..

الصحف البريطانية تعلق على أحداث معركة التل الكبير

التيمس : « إنه لمن المدهش والغريب أن القيادة البريطانية فى مصر تعترف صراحة بأن جميع الفدائيين المصريين قد تصدوا لها أثناء معركة التل الكبير وواجهوا القوات البريطانية بكامل أسلحتها وحاربوا ببسالة منقطعة النظير » .

والديلى ميرور ـ و ـ النيوز كرونيكل : « إن معركة التل الكبير تعتبر من أعنف المعارك التى واجهتنا فى مصر إذ أنها تفوق فى عنفها جميع المعارك التى خضناها فى فلسطين . وإنه لعجيب أن يصمد الفدائيون للقوات البريطانية يوم السبت ١٢ يناير ١٩٥٢ ويحاربوا ببسالة وشجاعة الفرق الميكانيكية والأسلحة الثقيلة وجنود المظلات وفرق الكاميرون والهايلاندرز » .

وفى ٢٦ يناير ١٩٥٢ « حرقت القاهرة » . أعلنت الأحكام العرفية . أقيلت وزارة النحاس التى أعلنت الأحكام العرفية فور إعلانها . أوقفت بالقوة « الوطنية » حرب التحرير الشعبية ..

العجــز اليائــس ..

منذ سبعين عاما لم يتخلف جيل . منذ سبعين عاما استعملت كل الوسائل . منذ سبعين عاما والأحزاب تحكم وتحاول وتفاوض وتستقيل أو تقال . منذ سبعين عاما والشهداء يتساقطون المشكلة (الاحتلال) باقية وتزداد حدة بدون حل (استقلال) وقد فشلت كل الوسائل وعجزت كل القوى عن حلها .. فما العمل ؟

ما الذى كان يريد الشهيد عبد الحكم الجراحى أن يقوله حين قال فى برقيته إلى رئيس وزراء إنجلترا : « .. سيتولى الله عقابكم .. » . هل وصل العجز إلى حد اليأس ؟ .. إذن فإن حركة التطور الاجتماعى فى مصر قد أصبحت فى حاجة موضوعية إلى « بطل » . أو ـ على الأصح ـ أن هناك دور بطولة يبحث عمن يؤديه وكل الظروف وكل القوى تستدعيه .

(٦)
الاستدعاء .. والوفاء

يقول الأستاذ المؤرخ المستشار طارق البشرى : « إنه فى سياق أزمة الحكم والأزمة السياسية العامة التى عانت منها الحياة المصرية منذ إلغاء المعاهدة فى ٨ أكتوبر ١٩٥١ حتى حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ لم تستطع التيارات السياسية والشعبية وتنظيماتها أن تتجمع سريعا فى شكل من أشكال الجبهات التى يمكنها من تجميع الرأى العام السياسى وراء الأهداف المتفق عليها . ويوم الحريق نفسه كادت مصر أن تكون بغير سلطة سياسية ، وانفلت زمام الأمور ، ورغم ذلك لم تستطع التنظيمات القائمة مجتمعة أو منفردة أن تلتقط أيا من أطراف السلطة الملقاة طريحة . وقد لوحظ فى تلك السنوات الأخيرة أن نما بين العناصر غير الحزبية من الوطنيين تيار يفتش عن « الرجل » و « القائد » و « الزعيم » بل ينادى جهرة بحثا عن « الديكتاتور » الذى تختاره مصر . وزاد الاتجاه نموا بعد انكسار التنظيمات الشعبية الذى أعقب حريق القاهرة وحتى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

الديمقراطية ونظام ٢٣ يوليو ..

حديث الصديق الرقيق فى حاجة إلى تعليق .

لم تكن مصر فى حاجة إلى سلطة « تدير » بل كانت فى حاجة إلى حركة « تحرير » فلم يهتم أحد بالتقاط أطراف السلطة الملقاة طريحة . لم تكن مشكلة الاحتلال فى حاجة إلى رئيس حكومة يعجز فى النهاية عن تحرير مصر فيضطر فى النهاية إلى مهادنة المحتلين وعملائهم كما فعل فى النهاية مصطفى النحاس ، خريج مدرسة الحزب الوطنى قبل أن يكون وفديا . وواحد من أصلب الزعماء دفاعا عن الوطن فى البداية .. لم تكن مصر فى حاجة إلى « جبهة » من الأحزاب فقد جربت عام ١٩٣٥ فأسفرت عن معاهدة ١٩٣٦ . ألم تركيف هتف الشعب « لاحزبية بعد اليوم » عام ١٩٤٦ ؟ إنه الشعب نفسه الذى استنفد جهده الثورى لجمع الأحزاب فى جبهة عام ١٩٣٥ . ألم تساهم كل الأحزاب فى إنشاء كتائب التحرير فما أن أحرقت القاهرة وقيل انفضوا إلا وانفضوا وقد كانوا أقرب إلى الجبهة التى تساند الكتائب ، كل ما يأخذه المؤرخ النابه على « التيارات السياسية والشعبية ومنظماتها » كان قد جُرِّب من قبل وفشل وبقى الدعاء من أجل « رجل » أو « زعيم » .

ولم يكن ذاك الدعاء ملحوظا فى السنوات الآخيرة فقط ، بل كان مترددا بعد إخفاق كل مرحلة نضال ثورى . أول من استدعاه كان الإمام محمد عبده فى أوائل القرن

بعد فشل ثورة أحمد عرابى وأسماه حينئذ « المستبد العادل » . وظلت أقرب المنظمات من الشعب وتعبيرا عن آماله تحتضن أمل الزعيم . أعنى تجعل من نفسها « حاضنة » « للزعيم » المنتظر (وهى ظاهرة متكررة فى تاريخ الذين يحتضنون فكرة المهدى المنتظر) .

كان مبدأ « الزعيم » الفرد ركنا أساسيا من مبادئ حزب الوفد منذ نشأته تحت قيادة سعد زغلول حتى نهاية قيادة مصطفى النحاس . كان سعد زغلول هو « الزعيم » الذى لاتتقيد إرادته بقرارات حزبه ولايخضع فى تكوين تلك الإرادة وتقريرها وفرضها لأى نظام داخلى أو أية أغلبية حزبية . وكذلك كان مصطفى النحاس . لم يكن أى منهما يلتزم البدهية الأولى فى النظام الحزبى الليبرالى وهى الخضوع لرأى الأغلبية إلا إذا كانت الأغلبية مؤيدة رأيه الخاص . أما إذا خالفت الأغلبية ، أو حتى الحزب كله ، رأيه فهو الزعيم الذى لاتجوز مخالفته .

كانت قيادة حزب الوفد عام ١٩٢١ تتكون من سعد زغلول رئيسا وأربعة عشر عضوا . فلما اختلف الأعضاء مع « الزعيم » أصدر قرارا منفردا بفصل عشرة أعضاء أى أغلبية القيادة . وفى عام ١٩٣٢ كانت قيادة الوفد تتكون من مصطفى النحاس رئيسا وأحد عشر عضوا . فلما اختلفت مع « الزعيم » أصدر قرارا منفردا بفصل ثمانية أعضاء أى أغلبية القيادة ..

كانت تلك « أيديولوجية » الوفد . نشرت الجريدة الوفدية « كوكب الشرق » يوم ٣ يناير ١٩٣٦ رأى الوفد فى الضرورة الاجتماعية « للزعيم » فقالت : « ماخلت نهضة عامة من زعامة ولا أقفرت حركة وطنية من قيادة ولاقامت ثورة إلا على توجيه . ومن ثم كان للزعيم فى الحركات القومية قداسة لايمسها شىء ومقام لاترتفع إليه ظلال الشبهة وأوج لايبلغه اتهام . إن الجماعات هى التى تختار زعماءها ولكن الاختيار نفسه لايلبث أن يحيط ذاته بالقداسة والتكريم الواجبين للمعنى المتمثل به . فإن الزعيم هو الجماعات نفسها فى فرد كما أن الجماعات هى الفرد نفسه ممثلة فيه » هل كان ذلك نفاقا لمصطفى النحاس ؟ .. لا . فى ١٠ سبتمبر ١٩٣٧ أراد مصطفى النحاس أن يمهد لفصل محمود فهمى النقراشى فى مواجهة أغلبية أعضاء الوفد فقال : « ماكنت يوما من الأيام رئيس حزب أو هيئة بل زعيم أمة بأسرها فمن خرج عليها صبّت عليه غضبها ، ومن وقف فى طريقها كان كمن يقف أمام التيار الجارف يكتسحه فيلقيه فى قاع اليم فلا يجد لنفسه مخرجا ولا إلى الحياة طريقا » . وفصل النقراشى بعد خطابه ذاك بيومين .

أما عن جماعة « الإخوان المسلمون » ـ القوة الشعبية الثانية ـ فقد نشأت ونمت على أساس من نظام البيعة على السمع والطاعة والتسليم الكامل للقيادة . احتجاجا ـ

فى غير موضعه ـ بقوله تعالى : « فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » . ولقب رئيس الجماعة « المرشد العام » يوحى بما هو أكثر من الزعامة لأن مخالفته لاتعنى شيئا أقل من فقدان « الرشد » .

فإذا تركنا الأحزاب لنفتش عن أمل الزعيم لدى الذين يصوغون الرأى العام ويربون الناشئة فى المدارس والجامعة . نرى فيما كان يلقيه الدكتور عبد السلام ذهنى والدكتور وايت إبراهيم من دروس على طلبة القانون العام فى جامعة القاهرة ترويجا مباشرا لأمل الزعيم لإصلاح « النظام الديمقراطى » . وهما ينقلان عن لوديل قوله : « لابد فى سبيل المحافظة على كيان الدولة وحتى تستطيع معالجةماينزل بها من اضطراب أو قلق من أن يكون هناك فرد فى زعامتها يجمع فى يده مزايا السلطة المطلقة . قد تكون هذه السلطة المطلقة ممقوته فى نظر فريق من الشعب وفى بعض الظروف ، على أن جماعات الشعوب بوجه عام تميل إلى تحبيذ ما تقفه الهيئات الحاكمة من مواقف الحزم والجرأة » . وينقلان على لاسكى قوله : « وقد ازداد الأخذ بهذا المبدأ بعد الحرب وذاع شيوعه » . وينقلان عن جيتز فتش قوله : « إن السلطة التنفيذية القوية والقادرة المنتجة هى ضرورة لازمة للنظام البرلمانى » وينقلان عن بارتيلس قوله « ليست الأحزاب إلا جماعات تأكلها الأضغان والأحقاد والمنازعات وعدم الثقة » . وينقلان عن شارل بينوا .. إلخ . (نقلنا ما تقدم من كتاب « مجموعة رسائل فى الأنظمة الدستورية والإدارية » الذى اشترك فى تأليفه الدكتور عبد السلام ذهنى والدكتور وايت إبراهيم بدلا من الرجوع إلى المؤلفات المنفردة لكل منهما وقد كان هذا الكتاب هو الذى يدرس فى كلية الحقوق حتى عام ١٩٤٠) .

عندما تقوم الثورة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ سيكون قد شغل مركز الأستاذية لتدريس القانون العام فى كلية الحقوق الدكتور سيد صبرى فيبادر إلى مساندتها حتى قبل إلغاء الدستور بمقال أحدث أثرا هائلا عن « الشرعية الثورية » نشر فى « الأهرام » يوم ٢٧ يوليو ١٩٥٢ . والدكتور عثمان خليل الذى سيقول : « لقد أجمع الفقهاء الدستوريون على أن أسوأ مظاهر الاستبداد هو الذى يأتى عن طريق مظاهر تمثيلية أو نيابية وأنه استبداد معسول يستبد بالشعب باسم الشعب » .

لم يكن أساتذة القانون فى الجامعة هم وحدهم الذين يستدعون الأمل البطل بل استدعاه خارج الجامعة من يعبرون بالأدب والفن عن آمال الشعوب . وكان على رأسهم توفيق الحكيم . قبل أن تدركه الشيخوخة أنشأ كتابه الذى نشر تحت عنوان « شجرة الحكم » عام ١٩٣٨ فى شكل مسرحية مباشرة التعبير ، وقدم لطبعة جديدة منه بقوله : « إن الحكم المثالى ، فى واقع الأمر ، ليس فى المبادئ المثالية بل فى الأشخاص المثاليين » وكأنما اتخذ من جمال الأداء الفنى للمسرحية وسيلة لإغرا القراء بأن يقتنعوا برأيه

القائل : « إن البرلمان فى مصر هو الأداة الصالحة لتخريج الحكام غير الصالحين » . وأيده بمقال نشر فى عام ١٩٣٨ تحت عنوان « لماذا انقد النظام البرلمانى » .. نقل فيه إلى قراء مسرحيته أن .. « خير مصر والبلاد الشرقية فى محيطها الصغير وخير العالم كله بدوله الكبرى والصغرى فى محيطها الكبير يتوقف على ظهور حفنة من رجال نسوا فى لحظة من لحظات أبهة أشخاصهم وسيادة دولهم ليعملوا خالصين مخلصين لتحقيق المبادئ المثالية على الأرض بما تحويه من عدالة وحق وتعاون ومحبة وإخاء .

وكان الأستاذ إحسان عبد القدوس يعبر بقوة وصدق عن جيل ثورة ١٩٥٢ قبل أن تقع ، ويدعو لها ، ويحتل مكانا مؤثرا فى الاتجاه الفكرى للحركة الوطنية المعاصرة . كتب مقالا بعنوان « إن مصر فى حاجة إلى ديكتاتور .. فهل هو على ماهر » تحمس فيه للدفاع عنه « لأنه يعتد برأيه إلى حد لايسمح معه للوزراء بالتفكير » (هكذا !!) ثم قال « ومصر تقبل معه أن يعتد برأيه إلى حد أن يصبح ديكتاتورا للشعب لاعلى الشعب . ديكتاتورا للحرية لا على الحرية . ديكتاتورا يدفعها إلى الامام ولايشدها إلى الخلف » .

ويقول أحمد حمروش فى كتابه « قصة ثورة ٢٣ يوليو » : « فى هذه المرحلة (يقصد مرحلة ماقبل الثورة) كانت صحية المناداة بالحاكم المستبد العادل قد علت وترددت ووصلت إلى الذروة سواء فى الخارج أو فى الداخل » نشر الكاتب الأمريكى ستيوارت اليوب مقالا فى صحيفة « شيكاغوصن تايمز » يقول فيه : إن الحديث عن إنعاش الديمقراطية فى بلد كمصر يعيش فيه أغلبية الشعب عيشة أحط من عيشة الحيوانات لغو فارغ . إن مصر لاتحتاج إلى ديمقراطية بل تحتاج إلى رجل فرد . إلى رجل مثل كال أتاتورك ليقوم بالإصلاحات الضرورية اللازمة للبلاد . لكن مشكلة مصر فى كيفية العثور على الديكتاتور فليس بين رجالها من لديه المؤهلات اللازمة للديكتاتورية .

و .. و .. و ... إلخ .

كل الناس كانوا يعبرون بطرق شتى عن ضرورة اجتماعية قائمة فى الواقع الموضوعى تنعكس فى وعيهم بدرجات متفاوتة ، وتدل جملتها على أن المجتمع فى حاجة إلى بطل ، أو - الأصح - أن فى المجتمع دور بطولة فى حاجة إلى من يؤديه .

إنه دور ظهرت معالمه بعد أن تحقق . أما قبل ذلك فكان مجرد تصوره ينتمى إلى « الأوهام » .. المشكلة : الاحتلال ، الحل : التحرير . فمن ذا الذى كان يمكنه أن يتصور :

١ - أداة تحرير من القوات المسلحة مثل عرابى .
٢ - تعزل الملك حتى لاتتعرض لمثل خيانة توفيق .

٣ ـ توحد القوى من الثوار فتركز على هدف التحرير بصرف النظر عن الخلافات السياسية .

٤ ـ وتلغى الازدواج فى الخط الوطنى فتلغى الأحزاب التى تمثل الخط الإصلاحى .

٥ ـ وتستولى على السلطة لتواجه الاحتلال بمصر كلها .

٦ ـ وتحمى المقاومة الشعبية وتفاوض الإنجليز فى ظل القتال .

٧ ـ وتتحدى دولة كبرى بالتحالف مع أكبر عدد من الدول .

٨ ـ وتقاتل فإن انتصرت فمقدمة إلى قتال جديد وإن انهزمت لاتستسلم .

٩ ـ لاتفقد فى كل الظروف الثقة بذاتها وبأسلوبها وبالنصر .

١٠ ـ مستعدة دائما ، وملتحمة بالجماهير الشعبية وخاصة الفلاحين القوة الضاربة فى ثورة ١٩١٩ .

١١ ـ ثم تكتشف انتمائها القومى العربى فتخوض معارك تحرير أمتها .

من كان يتصور إمكان اجتماع كل هذا معا فى زمان واحد تحت قيادة رجل واحد ، هو الذى جمعه ، استجابة لاستدعاء تاريخى لحل مشكلة ظلت معلقة سبعين عاما ..

ألم يكن عبد الناصر هو الذى أجاب الدعاء ؟ .. بلى

إنه إذن « البطل » ..

(٧)

البطولة ليست ناصرية

نهايـة بطــل ..

بـأداء دور البطولـة تنقضى الحـاجـة الاجتماعيـة إلى البطل ، أى بطـل ، ويصبـح اصطناع أدوار بطولة أو اصطناع أبطال تهريجا عـابثـا . قـد تجـد فى مرحلـة تـاريخيـة لاحقة الحاجة الاجتماعية إلى بطل ، حينئذ ستستدعى بطلها الـذى سيكون مختلفـا عن كل الأبطال التاريخيين الذين سبقوه بقـدر اختلاف الظروف الاجتماعيـة التى احتـاجت إليه فاستدعته عن الظروف الاجتماعية التى احتاجت إليهم فاستدعتهم .

وانقضاء الحاجة الاجتماعية إلى البطل مرتبط موضوعيا بـانقضـاء سبب الحـاجـة الذى عرفنا أنه العجز الذاتى العام عن تحقيق ماهو قـابل للتحقق موضوعيـا مما يشكل عقبـة فى سبيل التطور الاجتماعى (حل المشكلات الاجتماعيـة) . والمفروض والمتوقـع أن تضطرد حركـة التطور الاجتماعى بـدون عوائق ذاتيـة بعـد أداء دور البطولـة وأن يستغنى عن البطل بعـد أن يكون الـدور الـذى أداه قـد دخـل كتجربـة تـاريخيـة وعى الناس فى المجتمع إن ما كانوا يظنون أنه غير قابل للتحقق قد كان دائما قـابلا للتحقق لو كانوا أكثر ثقـة بـأنفسهم فيتحررون من الشعور بـالعجز أمـام أيـة عوائـق أو عقبـات تثور فى طريق تطوير مجتمعهم بعد ذلك . أى تصبح المجتمعـات أكثر ثقـة بمقـدرتها على التطور وأكثر إيجابية وفاعلية فى حركة تطورها . وهكذا بينما تنتهى حاجة المجتمع إلى البطل بالوفاء ، وتنتهى البطولة بالأداء ، تبقى آثار التجربة التاريخية البطوليـة فى نفوس البشر يتناقلونها عبر تاريخهم فيقال إن الأبطـال خـالـدون ومـا هم كـذلـك وإنما تخلد فى نفوس البشر الآثار التى أحدثها الأبطال .

ولقـد كان عبـد النـاصر بطلا استـدعتـه حـاجـة المجتمع إلى التحرر من الاحتـلال البريطانى وعجز الناس فيـه عن تحريره على مـدى سبعين عـامـا بـالرغم من اشتراك كل الأجيال واستخدام كل الوسائل التى يعرفونهـا لطرد المحتلين . فـأدى عبـد النـاصر دوره على مدى اثنتى عشرة سنة (ابتـداء من عـام ١٩٤٤) . وتحررت مصر فعلا تحررا كاملا يوم أول يناير ١٩٥٧ على وجه التحديد .

ففى ٢٢ ديسمبر ١٩٥٦ كان قد تم جلاء القوات التى اعتـدت على مصر (فى ٥ نوفمبر ١٩٥٦) ردا على قرار عبـد النـاصر تـأميم قنـاة السـويس (٢٦ يوليـو ١٩٥٦) الـذى كان بدوره ردا على قرار الولايات المتحدة الأمريكيـة وإنجلترا بـسحب عرضها المـساهمـة فى بنـاء السـد العـالى (١٨ يوليو ١٩٥٦) الـذى كان ردا على قرار عبـد النـاصر كـسر

احتكار السلاح والتعامل مع المعسكر الاشتراكى وإبرام صفقة الأسلحة مع تشيكوسلوفاكيا (سبتمبر ١٩٥٥) الذى كان بدوره ردا على الهجوم الصهيونى المسلح على مركز قيادة القوات المسلحة فى غزة (٢٨ فبراير ١٩٥٥) الذى كان بدوره .. إلى آخر سلسلة رائعة ومروعة من الهجات والهجات المضادة فى معارك التحرير المجيدة التى قادها عبد الناصر منذ أن شكل أول خلية للضباط الأحرار أو وحد خلاياهم عام ١٩٤٤ ، وانتصر فيها فتحررت مصر من الاحتلال البريطانى يوم أول يناير ١٩٥٧ .

ففى ذلك اليوم ، وبعد جلاء القوات المعتدية ، صدر قرار إلغاء اتفاقية « الجلاء » التى كان مجلس قيادة الثورة قد عقدها مع إنجلترا (١٩ أكتوبر ١٩٥٤) والتى كانت تحتفظ لإنجلترا « بمسار جحا » فى أرض الوطن لتعود إلى مصر بعد الجلاء (تم فى ١٨ يونيو ١٩٥٦) : « فى حالة حدوث هجوم مسلح من دولة أجنبية على مصر أو أى بلد عربى يكون عند توقيع هذا الاتفاق طرفا فى معاهدة الدفاع المشترك بين دول الجامعة العربية أو على تركيا !! تقدم مصر للمملكة المتحدة من التسهيلات ما قد يكون لازما لتهيئة القاعدة (قاعدة قناة السويس) للحرب وإدارتها إدارة فعالة وتتضمن هذه التسهيلات استخدام الموانى المصرية فى حدود الضرورة القصوى فى المادة ٤ فقرة ١ من الاتفاقية) .

فى أول يناير ١٩٥٧ أصدر عبد الناصر قرارا بإلغاء تلك الاتفاقية واستولت مصر على كافة ما فى مخازنها من أدوات ومعدات وأسلحة . والواقع أنه ماكان يمكن الحديث جديا عن تحرير مصر من الاحتلال البريطانى مادامت باقية . وبإلغائها اكتمل تحرر مصر بقيادة جمال عبد الناصر ، فنقول أكمل عبد الناصر الوفاء بدور البطولة الذى استدعاه فأداه فأصبح به بطلا وانقضت البطولة بالنسبة إلى الدور وإلى البطل .. ولكن بقى ماهو أعمق أثرا فى تاريخ الشعب العربى وأولى بانتباه الناصريين .. نعنى آثار التجربة التاريخية البطولية فى نفوس البشر ..

نبدأ بالناس كافة ..

يوم أن مات عبد الناصر تقدم العالم كله ، الأعداء والأصدقاء ، ليشهدوا بأن قد فقد العالم « بطلا تاريخيا » . الجيل الجديد لم يشهد ماقاله الشهود غداة استشهاد عبد الناصر يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ . يوم جللت الصحف بالسواد فى برلين وكراتشى وبلجراد وأعلن الحداد العام فى كوبا . لا أظن أن ثمة بأسا بأن نحكى لهم بعض ماشاهدنا وهو يعد جزءا لازم للوصول إلى مانريد أن نصل إليه . يومئذ أى يوم ٢٩ سبتمبر ١٩٧٠ قالت صحيفة « رودى برافو » التشيكية : « إن واحدا من أعظم الزعماء فى القرن العشرين

قد ترك الحياة » . وقالت صحيفة « بوليتيكا » اليوغوسلافية : « إنه واحد من أبرز زعماء سياسة عدم الانحياز » . وقالت صحيفة « جنرال انزيجو » التى تصدر فى ألمانيا الغربية : « أنه الرئيس المصرى الذى ظل الغرب يخشاه ويحاربه طوال أكثر من عشر سنوات » . وقالت صحيفة « لوفيجارو » الفرنسية : « إن وفاته تعتبر كارثة لايمكن تبين أبعادها » . وقالت صحيفة « لونيتا » الإيطالية : « إن وفاته خسارة جسيمة لكل الحركة المعادية للاستعمار » . وقالت صحيفة « واجنر نيهيتر » السويدية : « لقد ترك وراءه فراغا كبيرا فهو الزعيم العربى الوحيد الذى كان يتمتع بمركز دولى » .

وفى ستوكهلم قال رئيس وزراء السويد : « إنه كان أحد الشخصيات من أصحاب المقام الأول فى العصر الحديث وأن بوفاته تخيم الكآبة على جميع أنحاء العالم » . وفى كوالا لامبور قال رئيس وزراء ماليزيا : « إن وفاته خسارة فادحة للعالم الإسلامى » . وفى تاناناريف قال رئيس جمهورية مالاجاش : « إن عبد الناصر كان بطلا وطنيا » . وفى كولومبو قالت رئيسة وزراء سيريلانكا : « إن وفاته خسارة لاتعوض بالنسبة إلى العالم بأسره » ، وفى هافانا قال كاسترو رئيس كوبا : « إن وفاة عبد الناصر خسارة عظيمة للعالم كله وللشعوب والدول العربية » . وفى روما قال رئيس وزراء إيطاليا : « إن وفاة الرئيس عبد الناصر حرمت العالم العربى من زعيم فذ » ... إلخ .

أهى مجاملة وعزاء فى وفاة رئيس دولة صديقة يتبرع بها أصدقاء ؟

فلننظر إذن كيف رثاه أعداؤه الذين كان انتصاره عليهم تاج بطولة .

قالت صحيفة « التايمز » : « إنه أول زعيم مصرى عظيم يحكم مصر فى العصر الحديث وقد استطاع بقوة شخصيته أن يجعل من مصر دولة كبرى يجب أن تعامل دائما بجدية وأن يخشى الجميع بأسها . لقد كان رجلا مرموقا يتطلع إليه كل الرجال » . وقالت صحيفة « الجارديان » : « إن عظمته تكمن فى شعوره بمصر ونحو العالم العربى وفوق كل شىء نحو الفلاحين العرب » . وقالت صحيفة « الديلى ميل » : « إن عبد الناصر كان الزعيم المتألق فى العالم العربى » . لقد كانت لدى بريطانيا أسباب تحملها على ألا تحب سياسة عبد الناصر ومع ذلك يجب الاعتراف بأن شخصية عظيمة قد ماتت » . ووصفته وزارة الخارجية الإنجليزية بأنه « واحدا من أكثر زعماء العالم هيبة ومكانة .. وإن أى شخص موضوعى لابد أن يعترف بأن الرئيس عبد الناصر قد ترك أثره على العالم كما أنه اكتسب احتراما كبيرا لبلده وللعالم العربى » . وقال جورج براون « وزير الخارجية البريطانية » : « لقد كان أفضل رجل فى الشرق الأوسط وكان رجلا

عظيما جدا . إن وفاته هى أسوأ نبأ سمعته فى حياتى . لقد كان واحدا من أعظم الرجال فى العالم » . وقال كريستوفر مايهيو الوزير البريطانى : « إن الرئيس عبد الناصر كان رجلا عظيما ووطنيا حقيقيا » . وقال دتيس هيلى وزير الدفاع : « إن التاريخ سيذكر الرئيس عبد الناصر بأنه الذى اكتسب العزة والثقة للشعب العربى كله ..» .

هكذا رثاه « الغير » من الأصدقاء والأعداء ..

أما « نحن » الذين فقدناه ، العرب أبناء الأمة الواحدة ، أفراد المجتمع الذى قاد معارك تحرره وانتصر ، فلا توجد لغة قادرة على أن تنقل إلى الجيل الجديد صورة ولو رمزية لشعب مفجوع وبحور من الدموع وذهول الرجال حتى الشلل الذى كالموت وصراخ النساء حتى الكلل فلا صوت ، وتدفق الناس رجالا ونساء وأطفالا من البيوت إلى الطرقات يجرون من كل الاتجاهات إلى كل الاتجاهات لايدرى أحد من أين وإلى أين حتى كأن الشعب كله قد جن من حدة الشعور بالضياع . وقد فقد ملكة الإدراك والهدى .

أحكى تجربتى الخاصة ..

إننى لم أكن يوما من أقرباء عبد الناصر ولا من المقتربين منه ولا من المقربين إليه فلم أعرف الرجل عن قرب قط فلم أنبهر به شخصا الانبهار الذى يؤكده الصادقون ممن عاشروه ، وإنما عرفته قائدا وحاكما ومفكرا وبطلا أى من خلال وظائفه الاجتماعية . فلما بلغنى نبأ وفاته تجاوز ذهنى الحدث إلى مايمكن أن يحدث وظل مشغولا بمصير الشعب لابما صار إليه القائد . ثم ماهى إلا دقائق حتى سمعت صرخة حادة ثم صراخا هادرا فى الشارع فانطلقت أطل عليه من الطابق الخامس لعلى أتبين مايجرى فذهلت حتى الشلل الذى كالموت وأنا أرى الناس رجالا ونساء وأطفالا يتدفقون من البيوت إلى الطرقات ويجرون من كل الاتجاهات إلى كل الاتجاهات حتى كأن الشعب كله قد جن من حدة الشعور بالضياع فشعرت فورا بضياع حاد وأصبحت جزءا من الشعب المفجوع غارقا معه فى بحر من الدموع . وماتزال المنابع المضحلة لدموع الشيخ لاتنساب ، حتى هذه الساعة ، إلا حين تعود إلى الذاكرة صورة الشعب المفجوع بوفاة عبد الناصر .

هذا يكفى فيما نعتقد لنتأمل معا صورا مدهشة من الآثار الخفية للبطولة فى الناس أفرادا وجماعات وشعوبا وأمما ، وفى الناس أعداء وفى الناس أصدقاء . إن عبد الناصر الذى رثاه كل أولئك الأصدقاء والأعداء وانفطر له الشعب حزنا حين مات لم يكن حين مات وعلى مدى أربع سنوات سابقات على الأقل لابطلا ولا قائما بأداء دور بطولة . كان حاكما ورئيس دولة وقائدا قوميا لجماهير الشعب العربى . ويمكن القول إنه

كان مهزوما على المستويات الثلاثة . وما كان يمكن أن يبقى قائدا وحاكما ورئيس دولة بعد هزيمة ١٩٦٧ ومسئوليته عنها إلا لأنه كان بطلا من قبل . ولقد هم بعد الهزيمة بأن يخلى مكان القيادة لغيره فاندفع ملايين من البشر « المرعوبين » إلى الشوارع والطرقات متدفقين من كل الاتجاهات رجالا ونساء وأطفالا ، يطلبون إليه البقاء .. إنها صورة سابقة على ما حدث بعد الوفاة ولكنها ـ وإن كانت مصغرة ـ تحمل ذات الدلالة . ودلالتها يعرفها ويتحدث عنها ويدرسها أساتذة وطلاب علم النفس الاجتماعى والمهتمون بمعرفته .

خلاصة ما يقوله أساتذة علم النفس الاجتماعى وتردده مراجعه التوحد العاطفى . الوجدانى ، النفسى .. بين البطل والناس . فهو يجسد مايتمناه كل فرد لنفسه فيتقمصه كل فرد ويذوّبه فى ذاته ليكمل ذاته به . وإذ يصبح البطل تجسيدا للمثل الأعلى الذى يتطلع إليه كل الأفراد فى المجتمع يصبح البطل أداة لتماسك المجتمع ووحدته ومنتهى التأثير المتبادل بين البطل ومجتمعه إلى أن يؤدى بالنسبة إلى الناس فيه دور الأب من حيث القبول والثقة وتحقق الأمن ووحدة الأمل والمصير .

يقول الدكتور على زيعور فى كتابه « قطاع البطولة والنرجسية فى الذات العربية ـ ١٩٨١ » « أن الأبعاد العاطفية فى علاقة عبد الناصر بالجمهور كثيرة وعميقة . وإلى جانب الواعى منها تقوم (أبعاد) أخرى لاواعية كانت من الغنى والحركة والجدلية والتفاعل بحيث كانت علائق تحدث اللحمه والنسغ « الالتحام والحفز على الحركة » فى مسيرة الأمة باتجاه تحريك كوامنها وتحقيق الذات المرجوة للأمة الملتفة حول رئيس ملهم .. لم يكن ناصر أساسا ، ولاكان هو المحور الأول . إلا لكونه المعبر عن لاوعى الأمة وعن النرجسية الجماعية وعن التعويض والتغطية لتطلعاتها والتحدث عن ذاتها المثالية » .

نضيف مايقوله آخرون من أهل الذكر . إن ذاك ليس وصفا للبطل بل بيانا لما يراه الناس فى البطل ويتوقعونه منه ، بعد أن توحدوا معه لأن ذاك مايرونه جديرا بهم وتوقعونه لأنفسهم . ومن هنا يمكن أن نقول إن الشعب المرعوب الذى خرج رجالا ونساء وأطفالا يومى ٩ و ١٠ يونيو ١٩٦٧ ليحول دون تخلى عبد الناصر عن مكانه فى القيادة لم يكن مرعوبا مماقد يصيب عبد الناصر لو تخلى ولكن كان مرعوبا مما قد يصيبه هو إن فقد الأمل الذى كان يجسده عبد الناصر منذ ١٩٥٦ ، كما أن الشعب المفجوع لوفاة عبد الناصر إنما كان يبكى مصيبته هو فيما فقد من أمل كان يجسده عبد الناصر .

ينقل الدكتور لويس كامل مليكة فى كتابة « سيكولوجية الجماعات والقيادة ـ

١٩٥٩ » عن كتاب هومانز « الجماعة الإنسانية ـ ١٩٥٠ » أنه قد أطلق على العلاقات العاطفية والنفسية وتفاعلاتها فيما بين القائد والجماعة الإنسانية « النظام الداخلى للجماعة » تمييزا عما أسماه « النظام الخارجى » الذى تواجه به الجماعة الموحدة مع قائدها الظروف الخارجية ..

السؤال الآن الذى ينبغى لأى ناصرى أن يحاول الإجابة عليه هو : لقد مات عبد الناصر وترك لمن يريدون أن يكملوا مشواره تراثا غنيا من الأفعال والأقوال والأفكار التى تشكل معا نسيج « النظام الداخلى » الموحد بين البطل والناس . فكيف يمكن أن تصاغ أو تعاد صياغة ذلك النظام الداخلى بين « الناصريين » وبين الناس بعد غياب البطل ؟ . أو بصيغة أخرى ماهى الأفعال والأقوال والأفكار التى كان « البطل » عبد الناصر جزءا لايتجزأ من مفهومها وكيف يمكن أن تبقى بذات المفهوم بعد غياب البطل ؟ .

حينما طرح دستور نابليون على الاستفتاء الشعبى فى ٧ فبراير ١٨٠٢ سئل أحد الفرنسيين : هل وافقت على الدستور فى الاستفتاء ولماذا ؟ قال : نعم وافقت لأنه أعجبنى . فقيل له : ما الذى أعجبك فى الدستور ؟ .. قال : أعجبنى أنه فيه اسم نابليون . (هيرفى دوفال ـ الاستفتاء الشعبى) .

فيا أيها الناصريون ..

لقد أعجب الشعب العربى بأفعال وأقوال وأفكار بطل التحرير القومى جمال عبد الناصر وليست البطولة ناصرية ، أو ليست الناصرية بطولة . فلستم أبطالا مثله فما الذى ستقدمونه إلى الشعب العربى ضمانا لالتزامكم « إكمال مشوار عبد الناصر » .. بدون عبد الناصر ؟ .

لا أحد يطلب الإجابة من أحد . ولسنا نتحدى أحدا أن يجيب . إنما نجتهد مع المجتهدين فى البحث عن الأجوبة الصحيحة من أجل مستقبل شعبنا العربى .. وفيما يلى سنتحدث تباعا عن أثر غياب عبد الناصر البطل على عناصر تجربته التاريخية الغنية : المنهج والمنطلقات والغايات والأساليب . والله المستعان .

(٨)

المنهـج ... حجـر الأسـاس [١]



بعد المقدمات السابقة ندخل بهذا المقال فى موضوع الحديث عن الناصريين واليهم . ولقد طالت تلك المقدمات عمدا مع أنها دارت حول سمة واحدة من سمات جمال عبد الناصر لإبراز ما امتاز به وحده وتميز به عن غيره فوحّد بينه وبين الشعب وأصبح عنصرا جوهريا فى فهم الشعب لأفعال وأقوال وأفكار جمال عبد الناصر ، وهو أن جمال عبد الناصر لم يكن عند الشعب مجرد قائد أو حاكم أو رئيس بل كان « بطلا تاريخيا » على وجه التخصيص . وانتهينا فى آخر ماسبق إلى سؤال الناصريين : « ما الذى ستقدمونه إلى الشعب العربى ضمانا لالتزامكم إكمال مشوار عبد الناصر .. بدون عبد الناصر ؟ » .

منهم من سيقول « أنا » أو يستحى قليلا فيقول « نحن » . أولئك يستغلون جمال عبد الناصر استغلالا مجردا من توقير واحترام ذكرى الرجل العظيم حين يقدمون أشخاصهم بديلا عن شخصه موهمين أنفسهم ، أو موهمين غيرهم ، بأن ماصدر عن البطل من أفعال أو أقوال أو أفكار إذ يسند إليهم « كناصريين » ستبقى له دلالته التى قبلها الناس فى حياة عبد الناصر .

لقد « ركع » أنور السادات أمام تمثال جمال عبد الناصر فى مجلس الأمة على إثر ترشيحه لرئاسة الجمهورية ، وأعلن بعبارات جهورية بليغة أنه يلتزم خط عبد الناصر وغايته وبيانه (بيان ٣٠ مارس) . ويعرف الناصريون قبل غيرهم أن أنور السادات كان فى ركعته الوثنية تلك كاذبا . ومع أن نهاية السادات المأساوية كانت نتيجة متراخية لفعلته تلك فهى عبرة . وبالرغم مما أدت إليه مسيرته مرتدا من تحقيق قدر كبير من فرز القوى بحيث أصبحت واضحة إلى حد لابأس به معالم تيار ناصرى كبير وعريض وكثيف ونشيط فى الوطن العربى يوشك أن يتوحد فى حزب . إلا أنه مايزال فى قلب التيار الناصرى من يوهمون أنفسهم أو يوهمون غيرهم كما فعل السادات . لايفترقون عنه إلا بأنهم ـ كما أعتقد ـ حسنوا النوايا أى قد يكونون مقتنعين بصدق مواقفهم . أما فيما يجاوز حسن النية فإنهم لايفترقون عن السادات إلا فى الشكل . ويبقى مضمون الموقف واحدا . تولى هو رئاسة جمهورية عبد الناصر ، وهم ينشئون من الناصريين أحزابا وجماعات وشللا ليتولوا رئاستها . وبدلا من الركوع أمام تمثال عبد الناصر يكادون يقدسون عبد الناصر وأفعاله وأقواله وأفكاره . تعرفهم من أنهم أكثر الناس تعبيرا بأكثر الأصوات صخبا بأكثر الكلمات حدة بأكثر الانفعالات « عصابية » عن قدسية أفعال وأقوال وأفكار عبد الناصر ..

منذ نحو عامين انعقدت فى القاهرة ندوة عن ثورة ٢٣ يوليو حضرها جمع من الناصريين والمتناصريين وأعداء عبد الناصر أيضا .. لفت الانتباه واحد من النابهين الذين عملوا فى أقرب المواقع من عبد الناصر . عبر بهدوء ويقين غريبين عن تأكيد أن كل ماحدث منذ ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى مصر كان مخططا له ، بحيث يأتى الحدث فى وقته ليؤدى غايته وينسحب ليخلى مكانه لحدث آخر كان معدا من قبل . نفى نفيا قطعيا أن يكون قد حدث غلط أو خطأ ولو بحسن نية أو أن تكون أحداث قاهرة قد تدخلت فغيرت مما كان متوقعا . باختصار أراد ، وهو شيخ ، أن يقنعنا ، ونحن شيوخ ، أن عبد الناصر لم يخطئ قط وأنه كان يخطط ويتوقع كل ماحدث فى حياته . أثار هذا الأسلوب أغلب « الناصريين » حتى همس أحدهم : لم يبق إلا أن يقول لنا إننا كنا قد خططنا لهزيمة ١٩٦٧ وأن اعتراف عبد الناصر بالأخطاء كان تخطيطا !!

هذا منطق شيخ ناصرى فلنتأمل منطق شاب ناصرى أيضا .

فى الشهور الأخيرة من عام ١٩٨١ كنت من بين الذين « لمهم » أنور السادات وألقى بهم فى ملحق سجن مزرعة طرة جنوب القاهرة . كنا نحو أربعين لايكاد يتفق منا أحد مع أحد فعلا أو قولا أو فكرا إلا القليل . وكان من بين القليل الذين يبدون مثقفين حفنة من الناصريين على رأسهم أكثر من عرفت من الناصريين صلابة وشجاعة وهدءوا وتهذيبا ، الأستاذ محمد فائق . كما كان من بينهم الرجل الذى يتصدى منذ ثلاثة أعوام لإنجاز أهم وأصعب المهام الناصرية الأستاذ فريد عبد الكريم وكيل المؤسسين للحزب الاشتراكى العربى الناصرى . وكان من بينهم شباب ناصريون تحدوا الردة الساداتية بشجاعة وهم بعد طلبة . قال واحد من هؤلاء الشباب أمام الآخرين وهم يتحدثون عن كتاب « نظرية الثورة العربية » : إن العيب الوحيد فى هذا الكتاب الذى يحول دون قبوله من الناصريين هو أنه ليس بكلمات عبد الناصر !! فاكتفى محمد فائق بالابتسام ..

بالرغم من كل سلبيات تلك المواقف إلا أنها مفهومة أو قابلة للفهم . إنى أضيف أنها إلى عهد قريب كانت مشروعة إذ كان مايزال « شخص » عبد الناصر البطل هو الذى يوحد الناصريين وبالتالى فإن الحرص على تأكيد « حضوره » فيما بينهم بالرغم من « غيابه » عنهم هو تعبير قوى وإن كان غير مباشر عن رغبتهم المؤكدة فى أن يتحولوا إلى قوة سياسية موحدة . إلى حزب .

ولقد أوشكوا على أن يتوحدوا حزبا ناصريا بدون عبد الناصر . يتقدم إلى الشعب العربى بنظرية « ناصرية » لبناء المستقبل وهذا هو على وجه التحديد جوهر المشكلة التى يواجهها الناصريون الآن .. إذ أن الناصرية .. مثل كل النظريات وعد وعهد . وعد من الناصريين للشعب بنظام للتطور الاجتماعى فى المستقبل اختاروه له .

وعهد فيما بين الناصريين بأن يعملوا معا على تطبيقه . على المستوى الأول سيكون الناصريون ملزمين بأن يجيبوا فى أى وقت على السؤال كيف عرفتم أن النظام الذى تعدون به هو الحل الصحيح لمشكلات التطور الاجتماعى المتجددة أبدا . لن يجدى جوابا الآن أن يقال : هكذا قال عبد الناصر ، بل لابد من الإحالة فى الجواب إلى « منهج » معرفتهم علمى محدد . وعلى المستوى الثانى ، مستوى العهد ، لم يعد عبد الناصر حاضرا ليحتكم إليه الناصريون فيما يختلفون ، وبالتالى لن يستطيعوا اجتناب مخاطر الخلاف إلا إذا كانوا يملكون ويلتزمون معيارا واحدا لاختبار صحة المواقف يحتكمون إليه عند الخلاف . أى إلا إذا كانوا يملكون « منهجا » موحدا للمعرفة .

ولقد كان جمال عبد الناصر طوال حياته يقوم ـ شخصيا ـ بوظيفة « المنهج » فهو المفكر المدبر الواعد دائما القادر دائما . على تعريف الناس صحة وعوده . ولقد كان من آثار « توحّد الناس والبطل » الذى أشرنا إليه من قبل أن ارتضى الناس أن يفكر لهم عبد الناصر ويدبر ، ووثقوا دائما فى صدق وعوده إلى درجة أن أحدا لم يعترض على أن يتولى عبد الناصر منفردا وضع مشروع فكرى كامل لصياغة الحياة فى مصر لمدة عشر سنوات قادمة (الميثاق) واقتصر الحوار العريض ، الطويل ، بينه وبين المؤتمر الوطنى على استفسارات عن دلالة أو آثار أحكام الميثاق وشروح طويلة من القائد المعلم . ثم إقرار للميثاق كما هو بدون إضافة أو حذف أو تعديل كلمة واحدة . أقوى من هذا دلالة على ثقة الناس فى صدق وعود عبد الناصر أنهم ، فى أخطر المواقف ، حيث كان واقع الهزيمة ينفى صدق وعود النصر ، بقى النصر وعدا قابلا للتحقق بشرط أن يبقى وعدا من عبد الناصر فأبقى الناس عبد الناصر موضع ثقتهم وآمالهم (يوم ٩ و ١٠ يونيو ١٩٦٧) . وكان هو مرجع الجميع للحكم فيما يختلفون فيه من تطبيق مشروعاته الموعود بها . لم يكن أحد فى حياة عبد الناصر يعاهد أحدا ولا حتى على « تأييد » عبد الناصر ، إنما كان الجميع ، وكل واحد منهم ، يعاهدونه هو ، فكان هو موحدهم ، وموحد فهمهم ، والمبقى على وحدتهم حوله . ولعله من أغرب ظواهر هذه العلاقة أنه منذ فترة الإعداد لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ لم يكن أحد يعرف أسماء جميع « الضباط الأحرار » إلا عبد الناصر وحده ، وقد بقى الأمر على هذا إلى أن توفى عبد الناصر .

باختصار كان عبد الناصر يقوم على وجه فذ بوظيفة « منهج » المعرفة الذى يوحد الناصريين . الآن غاب عبد الناصر فأصبح موقع المنهج من الناصرية خاليا ووظيفته شاغرة ، وهذا يلعب دورا خطيرا فى إعاقة التقاء الناصريين على مفهوم واحد للناصرية ، وعجزهم عن الاحتكام إلى معيار معرفى واحد عند الاختلاف .. ويضفى ـ فى الوقت ذاته ـ قدرا من المشروعية على « المواقف الفردية » فى داخل التيار الناصرى . إذ : « مافيش حد أحسن من حد » لأن الحكم مفتقد .

أرجو أن يكون هذا واضحا .

السؤال الآن من أين المنهج ؟ .. أو أى منهج ؟

الجواب أسهل بكثير مما يتصور كثيرون . وما غاب عن تصورهم إلا لأن أكثر الناصريين مشغولون بتقديس عبد الناصر بدلا من الانشغال بدراسته . ولقد انشغلنا بدراسته منذ أن غاب ولم نزل حتى فى هذا الحديث « عن الناصريين .. وإليهم » . ليس دراسة المؤرخين للماضى ولكن دراسة المهمومين بمستقبل أمة فقد بطلها . ولاشك فى أن من بين الناصريين الذين كانوا أكثر قربا منه من يستطيع أن يقدم إلى الجيل الجديد من شباب الأمة العربية تعريفا بعبد الناصر أكثر جودة مما نجتهد فيه . ولست أعرف سببا واحدا لنكوصهم ومنهم من لاتنقصه كفاءة البحث العلمى خاصة وقد استنفدوا كما أعتقد كل مبررات الكتابة عنه للكتابة عن أنفسهم من خلال مذكراتهم .

على أى حال ، فالناصرية هى الصياغة الفكرية لتجربة مرحلة عبد الناصر أو تلك هى بدايتها ، وبالتالى فإن المصدر الأساسى لصياغة منهجها هو « منهج » عبد الناصر نفسه .. وسنحاول فيما يلى طرح خلاصة ماكنا قد درسناه يوم أن كنا نكتب للناصريين وبناء على طلبهم « نظرية الثورة العربية » .

البداية المثيرة ماذكرناه من قبل من قول عبد الناصر عند تقديمه الميثاق أنه كان ينتهج فى الفترة السابقة على تقديمه ، أى ماقبل وضع الميثاق « التجربة والخطأ » . قال يوم ٢١ مايو ١٩٦١ أمام المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية : « العشر سنوات اللى فاتت كانت فترة تجربة ، فترة ممارسة ، كانت فترة مشينا فيها بالتجربة والخطأ » وكرر هذا فى مباحثات الوحدة الثلاثية يوم ٧ أبريل ١٩٦٣ .

وقد توقفنا طويلا عند هذا القول يوم أن كنا نصوغ « نظرية الثورة العربية » لأن مافيه من غرابة لايقل عما فيه من أمانة . ذلك لأن عبد الناصر كان ضابطا ثم أستاذا للضباط ، مقاتلا ثم أستاذا لفنون القتال وعلم الحرب . وإذا كانت أية مادة علمية تحتمل فى النظرية أو فى الممارسة الاتكال على صدفة التجريب ، أو « منهج » يسمى التجربة والخطأ ، فإن العلوم العسكرية لاتحتمله . فى العلوم العسكرية حيث التجربة تجريب فى الحياة ذاتها ، والخطأ يساوى الموت ذاته لايقبل من أحد ترك الحياة والموت للخطأ المحتمل حيث يكون الثمن حياة البشر .. فكيف يقول عبد الناصر إنه قد مشى عشر سنوات بالتجربة والخطأ .

توقفنا ثم سألنا الـ[illegible]ـريبين منه قربا لصيقا : كيف كان عبد الناصر يتخذ قراراته فجاء الجواب متواترا من أكثر من واحد ، ومتكررا فيما كتب عن عبد الناصر . كان إذا ماشرع فى اتخاذ قرار يجمع على نطاق واسع ومن مصادر متعددة كل الوقائع التى ترشح

أو تعوق القرار ، ويستمع بصبر لاينفد أبدا إلى كل الآراء حول الآثار المحتملة لهذا القرار ، ويطلب ويحصل على صورة صادقة ودقيقة وشاملة لآراء الناس العاديين (الجماهير) فى تقبل أو رفض أو الصيغ البديلة لمثل هذا القرار . ولقد كانت تتبعه أجهزة بالغة الاتساع والكفاءة لاستطلاع الرأى العام فى أى موضوع . بعد هذا ينكب على دراسة كل ما اجتمع له من عناصر تكوين الرأى ، ويدرسه ، ويراجعه على مراجع علمية أيضا ثم يتخذ القرار على ضوء مايحققه من تقدم طبقا لمعياره الأصيل : التحرر . إنه ذات الأسلوب العلمى المعتمد وحده فى العلوم العسكرية ولكنه فى الحياة الاجتماعية يقترب كثيرا من المنهج « البراجماتى » .

ولقد كدت يوما أن أنسب إلى عبد الناصر « البراجماتية » منهجا . أى أنه يتخذ من النفع المباشر المحتمل للقرار معيارا لصحته لولا أن المنهج البراجماتى ذاته منهج « مثالى » فردى . ولم يكن عبد الناصر مثاليا فرديا ، وإلا لما شغل نفسه بوضع الميثاق تخليا عن المثالية ، ولما انحاز إلى الجماهير المقهورة اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا تأكيدا لتوجهه الاجتماعى . عبد الناصر ،إذن ، لم يكن براجماتى المنهج .

مـاذا إذن ؟ ..

ظل الجواب يراوغ مقدرتى على الفهم حتى قرأت للمرة التى لاأدرى كم « فلسفة الثورة » فوجدت عبد الناصر يقول فى جمل تبدو عابرة :

« أنا أشهد أنه مرت على بعد يوم ٢٣ يوليو نوبات اتهمت فيها نفسى وزملائى وباقى الجيش بالحماقة والجنون الذى صنعناه فى ٢٣ يوليو . لقد كنت أتصور قبل ٢٣ يوليو أن الأمة كلها متحفزة متأهبة وأنها لاتنتظر إلا طليعة تقتحم أمامها السور فتندفع الأمة وراءها صفوفا متراصة منتظمة تزحف زحفا مقدسا إلى الهدف الكبير . وكنت أتصور دورنا علىأنه طليعة الفدائيين . وكنت أظن أن دورنا لايستغرق أكثر من بضع ساعات ، ويأتى بعدها الزحف المقدس للصفوف المتراصة المنتظمة إلى الهدف الكبير . بل قد كان الخيال يشط بى أحيانا فيخيل إلى أنى أسمع صليل الصفوف المتراصة وأسمع هدير الوقع الرهيب لزحفها المنظم إلى الهدف الكبير . أسمع هذا كله ويبدو فى سمعى من فرط إيمانى به حقيقة مادية وليس مجرد تصورات خيال . ثم فاجأنى الواقع بعد ٢٣ يوليو ..

قامت الطليعة بمهمتها واقتحمت سور الطغيان وخلعت الطاغية ووقفت تنتظر وصول الزحف المقدس للصفوف المتراصة المنتظمة إلى الهدف الكبير . وطال انتظارها .

لقد جاءتها جموع ليس لها آخر .. ولكن ما أبعد الحقيقة عن الخيال ..

كانت الجموع التى جاءت أشياعا متفرقة وفلولا متناثرة وتعطل الزحف المقدس إلى الهدف الكبير ، وبدت الصورة يومها قاتمة مخيفة تنذر بالخطر . ولقد أحسست وقلبي يملؤه الحزن وتقطر منه المرارة أن مهمة الطليعة لم تنته فى هذه الساعة وإنما من هذه الساعة بدأت ...

ولم نكن على استعداد .

وذهبنا نلتمس الرأى من ذوى الرأى ، والخبرة من أصحابها ، ومن سوء حظنا لم نعثر علىشىء كثير .. »

هكذا كان الأمر إذن . لم يكن عبد الناصر فى حاجة إلى منهج أو نظرية ليعد للثورة ويفجرها وينتصر . كان أسلوب الممارسة العلمية التى كان أستاذها كافيا لكل هذا . لم يكن عبد الناصر فى حاجة إلى منهج أو نظرية ليحكم ويقود لأنه لم يكن يعتقد أن ذاك دوره أو كما قال « لم يكن مستعدا » .. فلم يكن أمامه إلا التجربة والخطأ ..

كيف إذن انتقل من مرحلة التجربة والخطأ إلى مرحلة الميثاق ..

هذا سؤال سألته لنفسى ، وأنا بصدد دراسة المنهج ، عشرات المرات ولم أستطع أن أهتدى إلى الجواب الصحيح عليه إلا على ضوء ما انتهى إليه تطور عبد الناصر فكرا وممارسة . فقد اهتديت إلى أن عبد الناصر كان منذ ماقبل الثورة يحمل فى ذاته « موجها » منهجيا يستجيب إليه على السجية بدون افتعال . وحتى بدون أن يعيه . نتحدث عنه فيما يلى إكمالا للحديث عن « المنهج . حجر الأساس » ولكن لابد أن ننبه منذ الآن إلى أننا اهتدينا إليه لامن خلال دراسة عبد الناصر ،ولكن من خلال دراسة « النظرية القومية » ومواقف عبد الناصر من الأمة العربية وحضارتها .. وهو ماسيفسر كثيرا .. كثيرا .. من مواقفه من الحرية أو الاشتراكية أو الوحدة .

(٩)

المنـــهج .. حجــر الأســاس (٢)

فى البدء كنا عربا قبل أن نعرف ماهى العروبة . كان أهلنا فى الصعيد يغضبون غضبا يعبرون عنه ردعا لمن يشكك فى عروبة الأسر . كل الأسر . وكنا أطفالا نصطنع الغضب والمعارك دفاعا عن عروبتنا قبل أن نعرف ماهى العروبة . وكنا نتحلق حول أجدادنا كبار السن يقصّون علينا سلاسل من الأنساب تنتهى حتما بجد عربى وراعى غنم وفد فى جيش عمرو بن العاص فاتحا . ياجدى .. وهل كان عمرو بن العاص عربيا ؟ اخرس ياغبى « امال يعنى كان انجليزى » .. كان الإنجليز يحتلون مصر منذ عرابى فلم يكن أجدادنا يميزون العربى الذى هو منا إلا بنقيضه الإنجليزى الذى هو علينا .. وهو كريم لأنه عربى . وهو شهم لأنه عربى . وهو عزيز النفس لأنه عربى . وهو حامى الجيرة لأنه عربى .. فعرفنا العروبة فضيلة تنطوى على كل الفضائل ومن حين إلى حين ، يتزوج فتى ، أو تقام حفلة ختان صبى ، فيجتمع أهل القرية فى ساحتها ليشاركوا ويشاهدوا معالم الفرح الجماعى . يصطف الشباب وقد تساندت أكتافهم وتشابكت أيديهم . ويحيط بهم الباقون رجالا ونساء جلوسا على الأرض الطيبة . ثم يبدأ « عوض الله » فى قيادة المصطفين على إيقاع دفه الكبير . هو يحدو ويرقص وهم يرددون متمايلين على إيقاعه شعرا بدويا غريب اللهجة حتى إننا نحن الصغار لانفهمه وإن كنا نتمايل معهم . ومن ركن مظلم تنفلت فتاة محجبة فتجلس أمام شاب من الراقصين . فيتوقف الرقص ويتقدم الشاب خطوة ليلقى على تلك التى لايعرفها موال « غزل » صريح . حتى إذا مافرغ هلل الجميع وانسحبت الفتاة ، وعاد إلى الصف ليبدأ الرقص على إيقاع الدف وترديد الأغانى . كانت تلك أسعد ليالينا .. ليالى « زفة العرب » كما كان أهلنا يسمونها .. فعرفنا أن العروبة مصدر بهجة جماعية .. ولم يكن أحد من قرى الصعيد يعرف عن العروبة إلا أنها علاقة جماعية على الأصل الواحد ، وفضائل السلوك وبهجة الحياة .. وقرابة فوق الأسر موثقة فى صحف عتيقة تحتفظ بها الأسر ليعرف منها كل مولود عربى ـ حين يشب ـ مكانه من « شجرة العائلة » التى تنتهى دائما ـ إلى عربى جاء إلى مصر مع عمرو بن العاص .. بعد سنين طويلة من الخبرة والعلم عرفنا أن أغلب ، أو على الأصح بالنسبة إلى قريتنا « الهمامية » كل تلك الوثائق مزيفة .. اصطنعت لتؤكد شعورا غير زائف بالانتماء العربى ، فلم تكن فى زيفها أقل دلالة على صدق الشعور مما لوكانت وثيقة تاريخية ..

قبل أن ندرك كيف يحمل الشعور الصادق صاحبه على تأكيده بالكتابة ، كنا قد تعلمنا القراءة والكتابة والحساب ، ودخلنا مدرسة التاريخ المكتوب عن الأمة

والقومية والعروبة ، والتطور .. إلخ . فعرفنا من أساتذتنا الأوائل أن العروبة ليست « زفة فرح » بل هى انتساب إلى أمة . وحفظنا عن ظهر قلب تقريبا كل أوصاف الأمة كما عددها كل الذين وصفوا الأمة من جميع الأمم .. فلم يعد لدينا شك فى أننا ننتمى إلى أمة توافرت لها كل أوصاف الأمم .. وعشنا كل آلام العرب ، آلامنا . وحملنا كل هموم العرب ، همومنا . وحددنا آمالنا من آمال أمتنا ..

ثم ألح علينا سؤال بعد أن درسنا حتى آخر كلمة النظرية الماركسية فى الأمة . سؤال طرحه الماركسيون ولم يطرحه أحد من قبلهم فيما نعلم . لماذا تتكون الأمم ؟ . قالوا إن الطبقة البورجوازية الصاعدة فى أوربا بعد عهد الأقطاع قد « كونت » الأمم فتوسع نطاق السوق الرأسمالى . هكذا كانت ألمانيا وهكذا كانت إيطاليا .. إلخ . لم نستطع أن نفهم ، لماذا إذن ، اقتصر جهد البورجوازية الألمانية على تكوين الأمة الألمانية ، واقتصر جهد البورجوازية الإيطالية على تكوين الأمة الايطالية ؟ لماذا لم تكون البورجوازية الأوروبية أمة أوربية إلا إذا كانت كل بورجوازية منها قد « وجدت » أمة كانت متكونة من قبل واقتصر جهدها على توحيدها .. لابد أن يكون وجود « الأمة » سابقا على توحيدها فى دولة .

وبقى السؤال الذى طرحه الماركسيون ، لماذا تتكون الأمة ؟ .. بدون جواب ، فاجتهدنا فى الإجابة .. من أين نبدأ ؟ - أولا - من معرفة كيف تتكون الجماعات البشرية . ثم نعرف - ثانيا - كيف تتطور من طور إلى طور . وكان لابد من معرفة قوانين التطور الاجتماعى أولا إذ أن بداية تكوين الجماعات البشرية معروفة . كانت البداية أسرا ، ثم عشائر ، ثم قبائل ، ثم شعوبا ، ثم أمما ، فكيف تتطور (تنمو) الأسر لتكون عشيرة ، وتتطور العشائر لتكون قبائل ، وتتطور القبائل لتكون شعوبا ، وتتطور الشعوب لتكون أمما .. ومن يدرى ماذا سيكون بعد ذلك ؟

ماهو قانون التطور البشرى ؟

كل فرد يسعى إلى إشباع حاجته لايألو . كل أسرة تسعى إلى إشباع حاجاتها لاتألو ، تتصارع الأسر على مايشبع حاجاتها من موارد حتى تتساند ثم تلتحم عشيرة تكون بقوتها الموحدة أقدر على توفير احتياجات الأسر داخلها . ثم تتصارع العشائر حتى تتساند ثم تلتحم قبيلة تكون بقوتها أقدر على توفير احتياجات العشائر داخلها . ثم تتصارع القبائل حتى تتساند وتلتحم شعبا يكون بقوته أقدر على توفير احتياجات القبائل فيه ومن مظاهر قوته الاستئثار بأرض معينة وحمايتها والاشتراك فى الانتفاع بمواردها . حتى إذا ما استقر الشعب سنين قد تكون قرونا من التفاعل فيما

بينه وبين الأرض المعينة ، ينشئ من تفاعله مجموعة من التقاليد والآداب والنظم والفنون والعادات فيكتمل بحضارته أمة . ويحمل الأطفال منذ الميلاد حضارة أمتهم نقلا عن أمهاتهم اللواتى حملنها أطفالا عن أطفال عن أطفال ..

نطبق على أمتنا العربية ، انتقلت من الطور القبلى إلى الطور الشعبى بالهجرة إلى المدينة (الوطن الخاص بأهل المدينة) فأصبح أهل المدينة شعبا . وتفاعل شعب المدينة عن طريق الدعوة والفتح بشعوب محيطة وقبائل أخرى وحدها الإسلام بعد تعدد وآمنها بعد خوف وحماها بعد إباحة لكل غزو ، وتركها قرونا تتفاعل فيا بينها وبين الأرض المشتركة ، أداتها لغة واحدة ، وحدودها نظام واحد ، إلى أن اكتشف الذين كانوا شعوبا متفرقة ، خلال قرنين من الدفاع عن الأرض المشتركة ضد الغزو الصليبى ، أنهم أمة مكتملة ذات حضارة عربية تميزهم كأمة عن باقى الأمم وباقى الشعوب نتيجة تفاعل الإسلام الحضارى مع ما لاينقضه من الحضارات السابقة على التكوين القومى ..

وبعـــد ؟ ...

وبعد فإن الحضارة العربية التى أنشأتها الأمة العربية التى أنشأها الإسلام تتضمن ـ مثل كل الحضارات ـ ضوابط للسلوك ، ومعايير للقيم ، وحدودا للنظر خاصة بها . ومن بينها مؤشر منهجى حضارى .. هو ذلك الذى يتبعه العربى على السجية بدون افتعال وربما بدون أن يعيبه من أين اكتسبه ؟

من الإسلام .

من القرآن على وجه التحديد ؟

قلنا فى كتاب « نظرية الثورة العربية » : « أولى مشكلات المنهج .. هى « الحتمية » . انضباط الأشياء والظواهر بقوانين حتمية . ولنلاحظ من الآن أن تعبير « القوانين » كما نستعمله يساوى فى دلالته تعبير « النواميس » أو تعبير « السنن » كما هى مستعملة فى الفكر الإسلامى وعليه فإن الحتمية فى الإسلام لايمكن لمسلم أن ينكرها ويبقى مسلما فقد اتخذ الإسلام من انضباط نظام الكون وثبات نواميسه حجة على الذين لايؤمنون . ودعا الناس إلى أن يتأملوا مافى الكون من آيات أو سنن لاتتبدل : « سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » (الأحزاب ٦٢). « ولا تجد لسنتنا تحويلا » (الإسراء ٧٧) « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » (ق ٦، ٧) . « انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه » (الأنعام ٩٩) . « فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا » (الأنعام ٩٦) .. والآيات :

القصص ٣ ٧٧ ، ٧٢ والرعد / ٤ ، والروم / ٢٢، وفاطر / ٢٧ و ٢٨، والجاثية / ٤٣، والبقرة / ١٦٤، والذاريات / ٢٠ و ٢١، وفصلت / ٥٣، والأنبياء / ٢٢ .. »

فى نطاق هذا الكون المنضبط وحركته بسنن لاتتبدل ، من القادر والمسئول عن تغييره وتطويره ؟ .. أو كما يقولون فى الفكر الأوروبى . ماهو العامل الأساسى فى حركة التطور الاجتماعى ؟ ..

يجيب القرآن أنه « الإنسان » . هو الفاعل الصانع المغير المطور ولاتكون الطبيعة المادية إلا موضوع فعله . ويستعمل القران تعبير « السخرة » للدلالة على هذه العلاقة . وهو تعبير قوى الدلالة على أن الإنسان هو صانع واقعه والقادر المسئول عن تغييره . « ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض » (الحج ٦٥) « وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار » (إبراهيم : ٣٢) « وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار » (إبراهيم ٣٣) . « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها » (النحل : ١٤) « وسخر لكم مافى السماوات ومافى الأرض جميعا » (الجاثية : ١٣) .. إلخ . ويقطع القرآن فى أن شيئا من الواقع لن يتغير إلا إذا تغير الناس . « إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (الرعد : ١١) . « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » (هود : ١١٧) .

لذلك هو المنهج الإسلامى فى كلياته . قاعدته الأولى أن كل الأشياء والظواهر منضبطة حركتها بقوانين أو سنن حتمية . وقاعدته الثانية : أنه فى نطاق هذه الحتمية يكون الإنسان حرا فى تغيير واقعه . وقاعدته الثالثة : إن الإنسان وحده هو القادر على التغيير والمسئول عنه .

خلال قرون طويلة من الممارسة استقر هذا المنهج فى وعى الناس فأصبح « قيمة » تضبط مواقعهم بدون حاجة إلى إسناد دينى . ومنه استمدت الحضارة العربية التى نشأت ونمت واكتملت فى ظل الإسلام ذلك الطابع الإنسانى المميز الذى لايخطئ الباحثون الاهتداء عليه : الإنسان هو البداية . وقد حصن هذا المنهج الأمة العربية ضد كافة المناهج المادية أو المثالية أو النفعية .. ليس ثمة ما يضاف إلى صيغته الكلية إلا وفاء العرب بما أمروا بالوفاء به . تأمل الإنسان ودراسته لاكتشاف قوانين حركته منفردا ، ثم قوانين حركته مجتمعا مع غيره . ومع ذلك فسواء أوفوا أو لم يوفوا ، فإن حضارته المكونة لشخصيته تزوده حتى بدون أن يعى بمؤشر منهجى هو أن يبدأ نظره إلى كل شىء من الإنسان . مؤشر عربى حضارى يوجه المجتهدين فى الدراسة إلى حيث بدايتها : الإنسان ، ويوجه العاملين إلى بداية العمل ، الإنسان ، ويوجه الراغبين فى النصر إلى معيار النصر : الإنسان .

من طفل إلى طفل إلى طفل . كان عبد الناصر منذ أن كان طفلا يحمل فى ذاته هذا المؤشر الذى غرسته حضارته كعربى مسلم . وله فى تاريخه آيات كثيرة . كان المعول الأول فى انتقائه والتقائه بالضباط الأحرار الجانب الإنسانى (الزمالة والصداقة والثقة الشخصية) قبل الالتقاء على برامج وأهداف محددة . وانحاز إلى المقهورين من البشر لافتقادهم مقومات إنسانية (العزة والكرامة) قبل المقومات الاقتصادية . وكان فى حياته الخاصة والأسرية نموذجا للإنسان العربى كما تصوغه تقاليد وآداب وعادات حضارته العربية . كان قائدا عربيا يتبع على السجية بدون افتعال المؤشر المنهجى الحضارى . فقال على السجية أيضا :

« إن النصر عمل ، والعمل حركة ، والحركة فكر ، والفكر فهم وإيمان ، وهكذا فكل شىء يبدأ بالإنسان » . (أتحدى من يزعم أن عبد الناصر قد عرف هذا إلا من صدق انتمائه العربى) . فلما اجتهدنا فى دراسة مناهج التطور : الماركسى ، والليبرالى ، والتاريخى .. فى كتابنا الأول « أسس الاشتراكية العربية » اهتدينا إلى ما أسميناه منهج جدل الإنسان . وهو وحده - فى اعتقادنا - الذى يستطيع أن يقول لماذا كان ما قاله عبد الناصر صحيحا . لأنه ابتداء من هذه المقولة التى عبر بها عبد الناصر عن خلاصة حضارته العربية الإسلامية فى شأن المنهج ، نجد أنها تجرى طبقا « لجدل الإنسان » على الوجه الآتى :

النصر يحقق إرادة إشباع حاجة الإنسان فى الواقع حيث تجربة الماضى هى المحدد لإرادة إشباع الحاجة التى لاتتم تلقائيا بل بالعمل . والعمل حركة تسعى إلى تحقيق فكرة مصوغة للمستقبل على أساس الإيمان بقابليتها للتحقق . مصدر هذا الإيمان إدراك لقوانين وسنن تغيير الواقع . فالبداية أن يدرك الإنسان مشكلته إدراكا صحيحا ، ويعرف حلها الصحيح ، ثم يعمل على تحقيقه فى الواقع فينصر .. وهذا هو جدل الإنسان ..

بعض الناصريين لايقبلون « جدل الإنسان » منهجا لأن عبد الناصر قد وقف عند القاعدة المنهجية الحضارية « إن الإنسان هو البداية » . لابأس . المهم الآن بالنسبة إلى الناصريين ليس ما قاله زيد أو عبيد ، ولكن البدء من أن « كل شىء يبدأ بالإنسان » الذى قاله عبد الناصر لاستكمال « المنهج » الذى لاتقوم « الناصرية » كنظرية إلا عليه ، ولاتصان وحدة الناصريين فى فهم الناصرية عند التطبيق إلا به ..

الذى لن يكون مفهوما هو الزعم بأنه وقد قال عبد الناصر « كل شىء يبدأ بالإنسان » قد قال إن كل شىء قد انتهى بعبد الناصر . لن يتفق هذا حتى مع دعوة عبد الناصر إلى الاجتهاد الفكرى وأعذاره بأن أعباءه لاتسمح له بكل مايحتاجه هذا

الاجتهاد . ونختم هذا الحديث عن المنهج بأنه قد يكون من المفيد لاجتهاد الناصريين مع البقاء فى دائرة المؤشر المنهجى الإنسانى أن ينتفعوا بالدراسات القيمة للأستاذ نديم البيطار وهو ناصرى قح ، وبما كتبه فى « البيان القومى الثورى » الأستاذ المرحوم الفاضل عبد الله الريماوى ، أما نحن فقد قلنا كلمتنا فى حياة عبد الناصر ولم نزل على ثقة من صحة ما قلنا إلى أن يثبت أننا أخطأنا .. حينئذ لن تكون لدينا ذرة من حرج فى حيازة فضيلة العودة إلى الحق .

اجتهدوا ما شئتم .. ولكن لاتتقدموا إلى الشعب ، فى غيبة عبد الناصر ، بنظرية انتقائية ، أى بدون منهج .. والله يوفقكم حتى لاتفقدوا المستقبل وأنتم « فقهاء » ...

وآية توفيق الله أن تكونوا قوميّين لتستحقوا أن تكونوا ناصريين لماذا ؟
جوابنا هو ختام حديثنا عنكم وإليكم .

(١٠)

قوميـون .. وإلا .. فــلا ..

الثوابت والمتغيرات

أيا كان المنهج العلمى الذى سينتهجه الناصريون فى صياغة « الناصرية » نظرية لبناء المستقبل فإنه سيبدأ « بالإنسان » ليكونوا ناصريين . هذا يميزهم على مستوى المنهج عن الماديين وعن المثاليين جميعا . والمناهج قوانين حركة ، أو منطق . فلا يجدى فيها التوفيق أو التلفيق . وهى قد تكون صحيحة أو خاطئة ولاتكون أبدا محتملة الصحة والخطأ فى الوقت ذاته . ولكن حتى المناهج الصحيحة لاتؤدى بذاتها إلى معرفة صحيحة بالمشكلات كما لاتؤدى بذاتها إلى معرفة الحل الصحيح لتلك المشكلات ولا إلى نوع أو قوة العمل اللازم لتحويل الحلول الصحيحة إلى واقع صحى . المنهج يساعد ولكنه لايؤدى تلقائيا إلى العمل الصحيح اجتماعيا . ذلك لأن المنهج طريقة فهم للواقع وكيفية تطويره . ولكى يؤدى دوره لابد من أن يكون الواقع المراد تطويره معروفا معرفة علمية صحيحة .. ولما كان الواقع متغيرا أبدا فتقع على عاتق الناصريين وهم يصوغون نظرية للمستقبل من تجربة الماضى أن يجتنبوا ماكان جزءا من الماضى ثم انقضى .. واكتشاف مايسمى « الثوابت » وهى ليست ثابتة أبدا ولكنها أكثر ثباتا فى الزمان من غيرها .

ولقد ضربنا من قبل مثلا بعبد الناصر البطل .. والبطولة ليست من الثوابت . ولولا أننا لانريد أن نتدخل فى اجتهادات الناصريين لضربنا أمثلة عدة . ومع ذلك لابأس فى أن نضرب بعض الأمثلة لإيضاح فكرتنا .

مثلا : تشكيل أداة التطوير الثورى من ضباط القوات المسلحة . هذا كان أسلوب عبد الناصر فى إعداده لثورة ١٩٥٢ أملته ظروف اجتماعية وسياسية سابقة على الثورة . وقد طورت الثورة تلك الظروف الاجتماعية والسياسية . ألغتها ، فلم يعد أسلوب التطوير الذى اختاره عبد الناصر أسلوبا « ناصرية » لأنه من المتغيرات .

ومثلا : جرب عبد الناصر صيغا شتى لدور الجماهير فى الإسهام فى قرارات الحكم ورقابتها . (الديمقراطية) . بدأ ليبراليا يرتضى الأحزاب إذا « تطهرت من قيادتها الفاسدة » ، ثم انتقل إلى صيغ هيئة التحرير ثم الاتحاد القومى ثم الاتحاد الاشتراكى ، وكانت كلها مفتوحة الانتماء لمن يريد فكانت تنظيما للجميع ولم يكن أى منها حزبا

إلى أن اختار الصيغة الحزبية لأعضاء منتقين على أساس ولائهم والتزامهم وقدرتهم على قيادة الجماهير (طليعة الاشتراكيين) وفكر فى سنواته الأخيرة فى تعدد الأحزاب . وكلها متغيرات ، ويكون على الناصريين أن يختاروا للمستقبل صيغة يرتضونها للديمقراطية الشعبية .

ومثلا : كان الاختيار الاشتراكى ضرورة لمواجهة مشكلات التنمية فى بلد متخلف . والتنمية والتخلف معياران متغيران فيكون على الناصريين أن يقيموا الاختبار الاشتراكى على أسس أكثر ثباتا .

ومثلا : ـ أخيرا وليس آخرا ـ كان عبد الناصر رئيس دولة عربية ، مقيدا بدستور دولته ، وبالقانون الدولى ، فتعامل من الدول العربية ، تحالفا أو عداوة ، من منطلق الاعتراف بشرعيتها . والالتزام بعدم التدخل فى شئونها الداخلية (ميثاق الدار البيضاء) هذا بينما كان فى الوقت ذاته ـ أو ابتداء من ١٩٥٦ ـ قائدا فعليا معترفا به للجماهير العربية . كان قائدا لجماهير تعادي حكاما يستقبلهم بصفته رئيس دولة استقبالات رسمية فى مطارات القاهرة ويتبادل معهم القبل (على الطريقة العربية) حين يلتقى بهم .. رئاسة الدولة من المتغيرات فيكون على الناصريين أن يحددوا فى نظرية المستقبل كيف يكون تعاملهم مع الدول العربية وحكامها ..

... إلى آخر ما يختاره الناصريون ..

إلا واحدة .. فلا خيار لهم فيها وإلا ماكانوا ناصريين بأى معنى .

تلك هى القومية ..

القومية ..

الانتماء إلى الأمة العربية من الثوابت التاريخية كما أن الحرية من الثوابت الإنسانية . وهى بالنسبة إلى الناصريين الثابت المعترف به طبقا للحد الأدنى من منهج عبد الناصر : البداية هي الإنسان . هذا يعنى أن السؤال الأول الذى يطرح على الناصريين هو من هو هذا الإنسان الذى تكون البداية منه ؟ هل هو الإنسان مجردا فى الزمان والمكان ؟ هل هو الإنسان الآسيوى أو الأفريقى ؟ هل هو الإنسان الذى يحمل هوية دولته ؟ فهو الإنسان المصرى أو السورى أو السعودى .. إلخ ؟ إن هذا لعلى أكبر قدر من الأهمية لتحديد وعاء النظرية ومضمونها وأسلوبها . إذ بعد أن تتحدد هوية الإنسان الذى يضع الناصريون له نظرية مستقبله ، ستتحدد تبعا له فى مكانه وزمانه المشكلات والحلول والأفعال ، وأكثر من هذا يتحدد الإنسان الذى يلتزم الناصريون بنظريتهم فى مواجهته ، وبالتالى يكون ملزما لهم التفاعل معه وقبول ما يقبله من تلك النظرية .

الأغلبية الساحقة ممن ينتسبون إلى الناصرية يقولون إنه الإنسان العربى أى المنتمى إلى الأمة العربية . عظيم ولكنه لايكفى . فالانتماء إلى الأمة العربية ليس اختيارا ولكنه ثمرة تطور تاريخى طويل جعل من الإنسان عربيا بدون أن يختار وسيبقى عربيا ولو كره انتماءه وحاول الانسلاخ منه .. كل الناصريين فى الوطن العربى عرب ينتمون إلى الأمة العربية ، ولكن كل المختلفين مع الناصريين أو حتى أعداءهم عرب ينتمون أيضا وبقوة التاريخ ذاته إلى الأمة العربية .

فلايكفى الناصريين ولايعنى شيئا أن ينسبوا إلى أنفسهم مالا يميزهم عمن يختلفون معهم أو يعادونهم . وكما أن أجيالا سابقة ، محكومين وحاكمين ، لم يفيدوا الأمة العربية شيئا ، فإن وعد الناصريين فى نظريتهم بأنهم سيكونون عربا دائما ، أو عروبيين ، وأنهم سيؤكدون فى مواثيقهم الملزمة بأن مصر - مثلا - جزء من الأمة العربية ، ويضيفون أن على شعبها أن يعمل على وحدتها .. كل هذا لايميز الناصريين بشىء لم يقله غيرهم . (المادة الأولى من دستور ١٩٧١) الذى أصدره السادات تنص على أن (الشعب المصرى جزء من الأمة العربية يعمل على تحقيق وحدتها الشاملة) .. فهل أجدى هذا شيئا ؟

إذن فلن يجدى الناصريين شيئا .

على الناصريين أن يلتفتوا إلى أنه فى نطاق الانتماء إلى الأمة العربية الذى يجمعهم مع غيرهم ، تتوزع القوى المشغولة بصنع المستقبل فرقا مختلفة متصارعة ومتقاتلة فى بعض الأوقات لاحول الانتماء العربى ولكن حول « الوحدة العربية » نعنى دولة عربية واحدة ، بسيطة أو فيدرالية لايهم المهم أن تكون دولة عربية واحدة أرضها الوطن العربى من الخليج إلى المحيط (الوطن التاريخى) وشعبها كل العرب بدون استثناء واحد .

الأغلبية الساحقة ممن ينتسبون إلى الناصرية يقولون نحن وحدويون ..

هذا لايكفى ولايعنى شيئا يميز الناصريين عن غيرهم ممن يدعون إلى الوحدة العربية . على الناصريين أن يلتفتوا إلى أنه فى نطاق « الوحدويين » الذى يجمعهم مع غيرهم تتوزع القوى المشغولة بتحقيق الوحدة فرقا مختلفة متصارعة ومتقاتلة فى بعض الأوقات . لاحول هدف الوحدة ولكن حول الموقف من « التجزئة » ، أغلبهم - أغلب الوحدويين أيها الناصريون - يتخذون من التجزئة منطلقا إلى الوحدة . ولما كانت التجزئة متجسدة فى دول لها حكام وأعلام وجيوش و « قروش » .. فإنهم يحاولون أن ينسلكوا إلى الوحدة ، أعنى دولة الوحدة ، الطريق المسدود ، إقناع الحكام

بأن يتنازلوا عن دولهم الإقليمية لحساب دولة الوحدة . وهو محال . محال إلا أن ترتضى الأمة العربية أن يتولى حكم دولة الوحدة الحاكم المتنازل عن دولته الإقليمية (تصعيد يعنى) وهو شرط للوحدة أو لقبولها كامن ومعشش داخل كل رأس عربى حاكم . يعبر عنه كل منهم حين يحلم بالوحدة ، بما يملكه من إعلامه وإعلانه ورجاله ومخابراته وتحالفاته وأمواله أيضا . ولقد أريد أن أضع تحت كلمة « أمواله » خطين لتنبيه الغافلين لولا أن الخطوط تشوه الكلمات ..

ماهو الأثر الفورى التلقائى الحتمى لتحقيق الوحدة ؟

هو على وجه التحديد إلغاء الدول العربية المستقلة كل منها بجزء من الوطن العربى ، وتحول حكامها وحاكميها ووزرائها وأجهزتها وكل صاحب سلطة فيها إلى « مواطنين » عاديين فى دولة الوحدة . إذن ، من هم أول ضحايا دولة الوحدة ؟ .. هم الذين يخسرون مواقعهم فى السلطة ؟ .. إذن ، من هم أعضاء الوحدة بحكم التناقض الموضوعى بين دولة الوحدة ومصالحهم ؟ .. إنهم الحكام ...

كيف هذا وقد كان عبد الناصر حاكم دولة مصر ووحدويا وحقق أول وحدة فى التاريخ ؟ .. الجواب يبحث عنه الناصريون بدون حرج فى التجربة التاريخية التى قادها عبد الناصر . عبد الناصر حقق الوحدة مع سوريا ولكنه توقف بالوحدة عند سوريا . واعتذر عن قبول الوحدة مع العراق ١٩٥٨ فتحولت الوحدة المصرية السورية إلى دولة إقليمية كبيرة . وعبد الناصر لم يستطع المحافظة على الوحدة التى تمت فوقع الانفصال سهلا - إلى درجة تثير الدهشة - عام ١٩٦١ .. لماذا ؟ لأن أداته إلى الوحدة كانت دولة مصر . ولم تكن دولة مصر وحدوية بل كانت دولة إقليمية بالرغم من أن قائدها كان قوميا .

ما الحـــل إذن ؟

الحل يلتفت إليه الناصريون وهم يصوغون نظريتهم . عندئذ سيرون ، من دراسة الواقع العربى ، وتاريخ التجربة التى قادها عبد الناصر ، أن الوحدويين ينقسمون إلى فريقين . فريق عروبى ، وفريقى قومى . أما العروبيون فينطلقون إلى الوحدة من مجرد الانتماء إلى الأمة العربية ويتخذون من هذا الانتماء حجة « ميتافيزيقية » يصوغونها بقولهم إن الوحدة العربية حتمية تاريخية . وأرجوا أن يتأمل كل الناصريين هذه المقولة . يتأملونها بهدوء وبدون عقد . فحين يقال إن الوحدة العربية حتمية تاريخية يلغى دور الإنسان ، فكأنها فى يوم ما ستتحقق تلقائيا لمجرد أنها دولة واحدة لأمة واحدة . وهو إعفاء للذات ، يصل إلى حد الهروب ، من

متاعب الصراع الاجتماعى فى سبيل تحقيق الوحدة (العنف ليس ضرورة لازمة للصراع الاجتماعى ولكن إذا فرضه الأعداء فإن الهرب منه جبن واستسلام) .. لايحتاج الأمر إلى مزيد من الإيضاح لنعرف أن صيغا مثل الجامعة العربية ـ والدفاع المشترك « والوحدات الجزئية .. والتضامن العربى والأخوة العربية .. إلخ كلها صيغ « عروبية » ولكنها ليست صيغا قومية وحدوية بل إنها مطروحة كبدائل عن الوحدة .. وميزتها بالنسبة إلى أصحابها أن تحتفظ لهم بدولتهم وحكمهم وحكامهم . وأكثر من عروبية وفى الوقت ذاته أكثر عداوة للوحدة العربية ، تلك البدائل المغرية كمشروعات توحيد المغرب الكبير أو وادى النيل أو الهلال الخصيب أو دول الجزيرة .. لأنها بدائل أكثر إقناعا من البقاء فى الدول والدويلات العربية المتردية سياسيا واقتصاديا والتى يغذى فشلها الدعوة ، والتطلع ، والأمل ، فى دولة الوحدة العربية الشاملة ..

هذا فريق العروبيين .

يبقى الفريق الثانى من الوحدويين . إنهم القوميون .

والقوميون ينتمون إلى الأمة العربية مثلهم مثل العرب جميعا . وهم وحدويون مثلهم مثل العروبيين . ولكنهم يختلفون جذريا ، ويتميزون قطعيا ، عن كل هؤلاء . بأنهم يحولون الانتماء السلبى إلى الأمة العربية إلى حركة إيجابية لبناء المستقبل العربى ، ويلتزمون ما يفرضه عليهم الانتماء التاريخى من حدود فى صنع التاريخ .

أول هذه الالتزامات الانطلاق من وحدة الأمة العربية شعبا ووطنا . المشروع القومى للمستقبل حتى لوصيغ فى إحدى القرى، لابد أن تصل أبعاده إلى أبعاد الوطن العربى كله ، وأن يشمل كل إنسان عربى . من أين يبدأ وأين ينتهى ، ومتى . هذا لايهم ، المهم أن يكون مشروعا للأمة العربية وليس لأى من أجزائها أو دولها . وإن كان سيفرض ذاته ـ عند تحديد البداية ـ أن تكون البداية من حيث ثقل الأمة ومركزها بشريا وحضاريا ومقدرة بحيث تأتى الوحدة التحاقا للاجزاء « بدولة وحدة نواة » . نحن نرشح مصر .. لأن مصر يمكن بأقل قدر من المعاناة أن تتحول إلى دولة وحدة نواة حتى بدون إضافة لتكون مستعدة لاستقبال الإضافات .. ليست مصر التى حكمها عبد الناصر ، وليست مصر الآن ولكن مصر التى تصبح أول قطر يطبق فيه دستور دولة الوحدة العربية ونظامها فتصبح « دولة العرب » .. وعلى الناصريين فى مصر أن يعرفوا كيف تتضمن نظريتهم إعادة صياغة دولة إقليمية كبرى بحيث تصبح دولة الوحدة النواة .. أو دولة العرب كما أفضل أن أسميها .. وهو عبء أكثر جسامة من أى عبء آخر .. ولكن بدونه لن يتميز الناصريون بشىء ذى بال عن الوحدويين العروبيين .

أعنى على وجه التحديد أن تكون النظرية الناصرية المرتقبة نظرية قومية ليكون الناصريون متميزون عن غيرهم من القوى الوحدوية كثيرة العدد فى الوطن العربى بدون قائده .

وليست القومية مجرد كلمات توضع فى المواثيق . إن تكن كذلك فقد سبقت إليها قوى وأحزاب كثيرة . إنما القومية منطلق حركة منظمة وضابط ملزم فى حركتها ونظامها .

مثلا : القوميون لايعترفون بشرعية التجزئة وبالتالى لايعترفون بشرعية الدول العربية حتى لو اعترفوا بها اعترافا واقعيا . فينظر الناصريون حين يصوغون نظريتهم كيف يمكن أن يتحقق هذا بدون إثارة « حرب أهلية » عربية .

ومثلا : التنظيم القومى لابد له ، لكى يكون قوميا ، بالإضافة إلى المبادئ والخطط ، أن يكون مفتوح العضوية لأى عربى يريد ، وتتوافر فيه شروط العضوية ، بالرغم من كل ماتحظره الدول العربية على تكوين الأحزاب والانتماء إليها .

مثلا : إن التنظيم القومى لن يتنازل تحت أى شرط ولأى سبب عن أن ينتشر وينشط من أجل الوحدة فى جميع الأقطار ولن يرضى هذا كل الحكام العرب الذين لن يترددوا فى استعمال قوانينهم ومحاكمهم وسجونهم ومشانقهم إذا لزم الأمر « للمحافظة » على أمن « الدولة » العربية واستقلالها .

مثلا : إن التنظيم القومى فى حركة انتشاره لن يقع - مهما كانت الظروف - فى أفخاخ التجزئة الإقليمية . لن يجسد الإقليمية فى ذاته ثم يدعى أنه قومى . ومن صور تجسيد الإقليمية أن تكون غايته الاستيلاء على الحكم فى إقليم ليتحول - بهذا وحده - إلى دولة إقليمية تجسد التجزئة . وأن يخضع فى منظماته الفرعية لخطوط التجزئة . لن يكون له - وهو قومى - فرع خاص وقاصر على كل دولة عربية فيدس فى تكوينه نفسه جرثومة التجزئة .

وغير هذا كثير ..
ومن الكثير المفاهيم الفكرية ..

فحركة التحرر « العربى » تعنى تحرر كل دولة عربية ، بقوتها الذاتية أو بمساعدة من الدول العربية الأخرى على اعتقاقها من التبعية والاحتلال . وكل دولة وحظها من النجاح أو الفشل . ولكن حركة التحرر « القومى » تعنى تحرير الوطن العربى

كله ، بنات القوة الموحدة ، من التبعية والاحتلال . وقد لايلعب الشعب العربى فى القطر المقهور دورا رئيسيا وقد لايستطيع أن يلعبه بفعل التبعية والاحتلال ذاتها ، إنما التنظيم القومى على امتداد الوطن العربى كله هو المسئول عن تحرير الوطن العربى كله بصرف النظر عن موقف الشعب العربى فيه ، لأنه حتى الشعب العربى فى أى قطر ، لايملك القطر الذى يعيش فيه بل هو « جزء من الأمة العربية » وعلى الناصريين أصحاب مبدأ « حرية الوطن والمواطن » أن يحددوا بدون لبس أن الوطن هو الوطن العربى وأن المواطن هو كل عربى وأن تلك حدود التزامهم بتحقيق « الحرية » ..

ثم إن القومية هى المدخل الصحيح إلى الاشتراكية وهى من الثوابت التى لاتتأثر بمتغيرات التنمية أو التخلف . لأن الأمة وطن مشترك لشعب واحد . ولما كانت مصادر الإنتاج هى هى ذاتها مكونات الوطن من أرض وسماء وماء إلى أن يلتقى بها جهد الشعب فتتحول إلى إنتاج بأسلوبه ، فإن الشعب فى الأمة ، أعنى أفراد الشعب ، وكل فرد ، ولا أعتقد أنه من الضرورى الآن أن أسميه الشعب العربى ، وأفراد الشعب العربى ، إنهم شركاء تاريخيا فى مصادر إنتاج وطنهم يحصل كل منه على عائد عمله . لا أكثر ولا أقل . ويقتضى هذا من الناحية الفنية وطبقا للخبرات الاقتصادية فى العالم ، أن تستثمر المصادر وقوة العمل طبقا لخطة شاملة كل المصادر وقوة العمل تضمن عدم تبديد المصادر ، وانعدام البطالة ، وحصول كل حسب جهده الذهنى أو العضلى . وبذلك تتحول القومية إلى التزام بالاشتراكية ، إذ الفردية التى هى أساس النظام الرأسمالى نقيض للقومية .

ثم إن هذه المشاركة التاريخية تحتم أن يكون لكل « شريك » فرد رأى حر فى كيفية توظيف المصادر المشتركة (أى إدارة الدولة) .. وهذا هو المدخل القومى الصحيح إلى الديمقراطية وليست الليبرالية الفردية المناقضة التى تزعم أن للفرد حقوقا خارج المجتمع وفى مواجهته .

ثم إن الوحدة هى التجسيد السياسى للأمة الواحدة ، وفى دولة الوحدة فقط ، باعتبارها دولة الشعب كله ، يمكن أن يتحقق نظام يقوم على أساس اشتراك الشعب العربى فى وطنه العربى ، أى على أساس قومى .. إذ دولة الوحدة حينئذ هى دولة جميع الشركاء .

كل هذا وغيره متاح للناصريين ليدرسوه ويتأملوه ويختاروا منه مايشاءون حين يصوغون نظريتهم .. ولاشك فى أن لديهم كفاءات قادرة على أن تختار ماتعتقد أنه « ناصرية » المستقبل نستخلصه من تجارب الماضى . ولكن ـ وهنا مربط الفرس كما يقولون ـ أن هذا الاختيار فى أمة عربية واحدة مجزأة فى الوقت ذاته لابد من أن

يكون من منطلق قومي أو من منطلق إقليمي .. ولا يجتمع المنطلقان لأنهما نقيضان .

ولهذا اجتهدنا في البداية كما قلنا من قبل فيما نشر تحت عنوان « نظرية الثورة العربية » .. وهي ليست حجة على أحد ، كما أن الناصريين لن يصوغوا الناصرية على مايريدون .. ولن تكون حجة علينا إلا أن تكون نظرية قومية ، لاعروبية ، ولاقطرية ، ولاملفقة من هذه النظريات جميعا ..

فإن تكن قومية فهم ناصريون ... وإلا فلا .

۞ الفهـرس ۞

شركة الفجر للطباعة
ت : ٣٦٢٨٨١ ـ ٠١٥

رقم الايداع : ١٧٢٩ / ١٩٨٩

الترقيم الدولى : ٩٧٧-١٣٥٠-٥٠-١